

الموجز فى التحليل النفسى

لوحة الفلاف

اسم العمل الفني: أحلام طائفة ١٩٣٦

التقنية : زيت على خشب المقاس: ٢٧.٥٠ × ٣٦.٥ سم

مقتنيات: متحف نيويورك

خوان ميرو (١٨٩٣ - ١٩٨٥)

مصور أسباني، درس الفن في برشلونة، ورحل إلى باريس عام ١٩١٩ مشدوداً إلى الحركة التكعيبية، ثم ارتبط بالحركة السريالية(*)، وابتكر لغة فنية رمزية تتميز بأسلوب خيالي، يلجأ إلى الألوان الزاهية المتألقة، والتكوينات المدروسة بعناية فائقة. وتستند أعماله إلى أساس واقعي تتفاعل بين الحي والروحي.

محمود الهندي

الموجز فى التحليل النفسى

تأليف : سيجموند فرويد

تقديم : د. محمد عثمان نجاتى

ترجمة : سامى محمود على

عبدالسلام القفاش

مراجعة : مصطفى زيوار

إعداد وتحرير: د. سمير سرحان

د. محمد عنانى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠ مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(أمهات الكتب)

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

الموجز في التحليل النفسي

تأليف: سيجموند فرويد

تقديم: د. محمد عثمان نجاتي

ترجمة: سامي محمد علي

عبد السلام القفاش

مراجعة: مصطفى زيوار

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان : محمود الهندي

المشرف العام :

د. سمير سرهان

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة، تلك الصيحة التي أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» في مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة، والذي فجر ينباع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذي كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفي مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التي أصدرت فى سنواتها الست السابقة (١٧٠٠)، عنواناً فى حوالى (٣٠٠) مليون نسخة لاقت نجاحاً وإقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى (٣٠٠٠) ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة، للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن، فى (١٦) جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب، لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

تصدير

يخلط الكثيرون بين علم النفس وبين التحليل النفسى ، إذ إن ذبوع صيت سيجموند فرويد وشيوع نظرياته فى التحليل النفسى ، وخصوصا تسرب المصطلحات التى نحتها أو وضعها أو عدلها إلى لغة الحياة اليومية، أدى إلى تصور غير المتخصصين أن علم النفس هو فرويد وأن فرويد هو علم النفس ، وكافح المتخصصون فى علم النفس بفروعه العديدة ردحا طويلا لإيضاح الاختلاف وإلقاء الضوء على مجالات علم النفس الكثيرة التى لا علاقة لها بالتحليل النفسى ، كما برز من بين علماء النفس وغيرهم من دأبوا على مهاجمة فرويد حتى أتى الوقت التى ظن الكثيرون أن فرويد قد أقصى تماما عن ساحة علم النفس ، أو أن دولته قد دالت ، حتى برزت «النظرية النقدية» الحديثة ، وكان من أهم أعلامها چاك لاكان Lacan الذى استند إلى نظريات فرويد فى التحليل النفسى وأقام منهجا كاملا من التحليل النقدى القائم على المصطلح الفرويدى والذى يتوسل بكل ما قاله ذلك العالم الرائد ، كما كان من أعلامها دعاة نصرة المرأة أو ما يسمى بالنقد النسوى Feminism ، الذى

استمد من فرويد بعض المفاهيم الأساسية وارتكن إلى بعض نظرياته فى تحليل الانحياز ضد المرأة الذى يبرر فى كتابات السلف ، بل إن إليزابيث رايت Wright أصدرت معجماً خاصاً بالتحليل النفسى من وجهة نظر هذا النقد، وإذا بالكتاب يتسارعون فى العقدين الأخيرين من القرن العشرين إلى إعادة النظر فى الموقف العدائى تجاه فرويد ، بل ذهب بعضهم إلى محاولة رد اعتباره استناداً إلى أن التحليل النفسى ، مهما يكن من معارضة علماء النفس له ، مجال مهم ولا يمكن إغفاله أو إقصاؤه عن الساحة العلمية .

ويسعد مكتبة الأسرة هذا العام (٢٠٠٠) أن تقدم هذا الموجز فى التحليل النفسى الذى كتبه فرويد وترجمه اثنان من المتخصصين عن اللغة الألمانية مباشرة ، وراجعته أستاذ مرموق هو الدكتور مصطفى زيوار ، وهو بهذه الصفة من أمهات الكتب اللازمة لكل من يستخدم مصطلحات التحليل النفسى فى غضون الدراسة الأدبية ، بل ولكل من يقرأ هذه المصطلحات فى حياته اليومية ، فهو دليل لا غنى عنه ، خصوصاً وأن الكتاب يشتمل على ملحق أعداه الدكتور سامى محمود على بالمصطلحات والمفاهيم الأساسية المترجمة والمشروحة بالعربية .

والله من وراء القصد ،

مكتبة الأسرة

مقدمة

بقلم

الدكتور محمد عثمان نجاتي

أستاذ علم النفس بكلية الآداب بجامعة القاهرة

تاريخ حياة فرويد :

ولد سيجموند فرويد فى عام ١٨٥٦ من أبوين يهوديين فى مدينة فرايبورج بموراڤيا التى تعرف الآن بتشيكوسلوفاكيا . وفى سن الرابعة انتقل مع أسرته إلى مدينة فيينا حيث نشأ ودرس الطب فى جامعته .

وقد اهتم فرويد اهتماماً خاصاً بالأبحاث الفسيولوجية والتشريحية المتعلقة بالجهاز العصبى . واشتغل وهو لا يزال طالباً فى معمل إرنست بروك E. Bruck الفسيولوجى ، وقام بعدة أبحاث فى تشريح الجهاز العصبى . وفى عام ١٨٨١ حصل على الدكتوراه فى الطب ، وعين مساعداً لإرنست بروك فى معمله . وفى عام ١٨٨٢ اشتغل طبيباً فى المستشفى الرئيسى بفيينا . ونشر بعض الأبحاث الهامة فى تشريح الجهاز العصبى وفى الأمراض العصبية ، مما لفت إليه الأنظار . وفى عام ١٨٨٥ عين محاضراً فى علم أمراض الجهاز العصبى .

ونشأت فى تلك الفترة صداقة بين فرويد وجوريف بروير Joseph Breuer أحد أطباء فيينا المشهورين ، وقد تأثر فرويد به تأثراً كبيراً . وقد كان بروير يستخدم الإيحاء التنويمى فى معالجة مرضاه . واكتشف أثناء علاجه لفتاة مصابة بالهستيريا أن المريضة ذكرت أثناء نومها حوادث ماضية لم لم تستطع تذكرها أثناء اليقظة . ورأى بروير أن ذكر المريضة لهذه الحوادث والتجارب الشخصية القديمة ، والإفشاء بالعواطف والانفعالات المتعلقة بها والتي كانت من قبل مكبوتة ، كان له أثر كبير فى شفاء المريضة . وقد سُمى بروير فيما بعد هذه الطريقة فى العلاج «بطريقة التفريغ» Cathartic Method . وذكر بروير لفرويد قصة علاجه لتلك الفتاة ، فأعجب فرويد بطرافتها وبنجاحها فى شفاء المريضة ، ولكنه لم يعلق عليها فى ذلك الوقت أهمية كبيرة .

وفى عام ١٨٨٥ رحل فرويد إلى باريس للدراسة فى جامعة سالبتريير حيث كان شاركو يقوم بأبحاثه فى الهستيريا . وشاهد فرويد بنفسه بعض هذه الأبحاث التى أثبتت إمكان إحداث أعراض الهستيريا بالإيحاء التنويمى ، وإمكان إزالتها بالإيحاء أيضاً . وقد أكدت هذه التجارب التشابه التام بين الهستيريا التى تحدث عن الإيحاء وبين الهستيريا التى تشاهد بين المرضى . ثم عاد فرويد إلى فيينا عام ١٨٨٦ ، واشتغل طبيباً خاصاً مع استمراره فى وظيفته التدريسية ، وأخذ فرويد فى تطبيق ما تعلمه من شاركو ، وحاول إقناع أطباء فيينا بإمكانه إحداث الهستيريا

بالإحياء التنويمى ، فقبول بمعارضة شديدة . غير أن فرويد استمر فى مواصلة بحثه العلمى كطبيب خاص يعالج مرضاه بوساطة الإحياء التنويمى ، ولم يلبث فرويد طويلا حتى اتضحت له بعض العيوب فى فنه التنويمى ، إذ تبين له أنه لا يستطيع أن ينوم بعض مرضاه . وقد جعله ذلك يشعر بأنه لا زال فى حاجة إلى تحسين فنه التنويمى ، فسافر فى عام ١٨٨٩ إلى مدينة نانسى بفرنسا ، وقضى فيها عدة أسابيع فى اتصال بالطبيبين ليبولت Liebault وبرنهايم Bernheim .

ولما عاد فرويد بعد ذلك إلى فيينا جدد اتصاله بجوزيف بروير ، واشتركا معاً فى مواصلة البحث العلمى فى أسباب الهستيريا وطرق علاجها ، وقد نشرّا معاً فى عام ١٨٩٣ بحثاً فى « العوامل النفسية للهستيريا » ، وفى عام ١٨٩٥ نشرّا كتاب « دراسات فى الهستيريا » ، ويعتبر هذا الكتاب الأخير نقطة تحول هامة فى تاريخ علاج الأمراض العقلية والنفسية ، فقد احتوى على البذور الأولى التى نمت منها فيما بعد نظرية التحليل النفسى . وقد أشار المؤلفان فى هذا الكتاب إلى أهمية الدور الذى تلعبه الحياة العاطفية فى الصحة العقلية الشعورية وبين الحالات العقلية اللاشعورية ، وذهبا إلى أن الأعراض الهستيرية تنشأ عن كبت الميول والرغبات ، فتتحول تحت تأثير هذا الكبت عن طريقها الطبيعى ، وتتخذ لها منفذاً عن طرق شاذة غير طبيعية هى الأعراض الهستيرية ، وشرح المؤلفان « طريقة التفريغ » وبينّا قيمتها العلاجية فى

شفاء الهستيريا، وتتلخص هذه الطريقة فى حث المريض أثناء التنويم المغناطيسى على تذكر الحوادث والخبرات الشخصية الماضية ، وعلى « التنفيس » abreaction عن العواطف والانفعالات المكبوتة ولذلك سميت هذه الطريقة فى العلاج بطريقة التفرغ . ويرجع الفضل فيما جاء فى الكتاب من آراء جديدة إلى بروير ، كما اعترف بذلك فرويد نفسه . وقد ساعدت ملاحظات فرويد وتجاربه العديدة على تأييد آراء بروير وإثبات صحتها .

ثم أخذت آراء فرويد تختلف عن آراء بروير ، فدب بينهما الخلاف ، وانقطعت بينهما الصلة ، وحدث أول خلاف بينهما حينما حاول تفسير العوامل النفسية المسببة للهستيريا بانقطاع الصلة بين حالات النفس الشعورية ، وفسر الأعراض الهستيرية بحالات شبه تنويمية ينفذ أثرها إلى الشعور ؛ أما فرويد فقد كان يرى أن الانحلال العقلى يحدث نتيجة صراع الميول وتصادم الرغبات . واعتبر الأعراض الهستيرية أعراضاً دفاعية نشأت تحت ضغط الدوافع المكبوتة فى اللاشعور التى تحاول التنفيس عن نفسها بشتى الطرق . ولما كان ظهور هذه الدوافع المكبوتة فى الشعور أمراً غير مقبول للنفس ، فإنها تحاول التنفيس عن نفسها بطرق غير طبيعية هى الأعراض الهستيرية . وحدث الخلاف الثانى بين فرويد وبروير حينما أخذ فرويد يعتبر الغريزة الجنسية السبب الأول فى حدوث الهستيريا ، ولم يوافق بروير على هذا رأى وعارض فرويد فيه ، كما عارض فى ذلك جمهور الأطباء فى عصره .

ومنذ ذلك الوقت أخذ فرويد يواصل أبحاثه منفرد في عزم لا يلين ،
وفي ثبات لم تزعه هجمات خصمه وبدأت تكشف له ملاحظاته
وأبحاثه عن الدور الذى تلعبه الغريزة الجنسية فى مرض الهستيريا ، وقد
دفعه ذلك إلى توسيع دائرة بحثه ، فأخذ يدرس الأنواع الأخرى من
الأمراض العصابية ، ويبحث عن علاقة الغريزة الجنسية بها ، وقد أدت
أبحاثه إلى اقتناعه بأن اضطراب الغريزة الجنسية هى العلة الرئيسية فى
جميع هذه الأمراض .

كان فرويد حتى الآن يستخدم « طريقة التفريغ » أثناء التنويم ، وهى
الطريقة التى اكتشفها بروير ، ثم أخذ فرويد يفتن إلى مافى التنويم من
عيوب ، فرأى أن بعض المرضى لا يمكن تنويمهم ، كما رأى أيضا أن
الشفاء الذى ينتج عن التنويم كان مقصوراً فقط على إزالة الأعراض
المرضية ، ولم يتناول العلة الرئيسية التى تنتج عنها هذه الأعراض ، كما
أن الشفاء كان وقتياً فقط لا يلبث أن يزول أثره بعد فترة طويلة أو
قصيرة ، فتعود الأعراض نفسها أو غيرها إلى الظهور مرة أخرى ، ورأى
فرويد أيضاً أن نجاح العلاج يتوقف على استمرار العلاقة بين المريض
وطبيبه ، ودعاه ذلك إلى أن يفتن إلى أهمية الدور الذى تلعبه الرابطة
الإنسانية فى العلاج ، ولم تكن الرابطة الإنسانية تظهر بوضوح أثناء
التنويم المغناطيسى .

لكل هذه الاعتبارات رأى فرويد أن يعدل عن استخدام التنويم ، وبدأ يحث مرضاه عن طريق الإيحاء وهم فى حالة اليقظة على تذكر الحوادث والتجارب الشخصية الماضية .

ثم ظهرت لفرويد - فيما بعد - عيوب هذه الطريقة أيضاً ، فقد وجد أنه لا يستطيع دائماً باستخدام الإيحاء وحده دفع مرضاه إلى تذكر الحوادث والتجارب الشخصية الماضية التى سببت مرضهم . هذا فضلاً عما فى هذه الطريقة من مشقة وإرهاق لكل من الطبيب والمريض ، فرأى فرويد أن يعدل عن هذه الطريقة وبدأ يطلب فقط من مرضاه أن يطلقوا العنان لأفكارهم تسترسل من تلقاء نفسها دون قيد أو شرط ، وطلب منهم أن يفوهوا بكل ما يخطر ببالهم أثناء ذلك من أفكار وذكريات ومشاعر دون إخفاء أى شئ عنه مهما كان تافهاً أو معيياً أو مؤلماً ، وتعرف هذه الطريقة التى ابتكرها فرويد بطريقة « التداعى الحر » free association .

وباستخدام التداعى الحر بدأت تنكشف أمام فرويد حقائق هامة حقائق هامة لم يكن من المستطاع الاهتداء إليها من قبل حينما كان العلاج يتم فقط أثناء التنويم . ابتدأت تتضح لفرويد أسباب التى تجعل تذكر بعض الحوادث والتجارب الشخصية الماضية أمراً صعباً . فقد رأى أن معظم هذه التجارب مؤلم أو مشين للنفس . وهكذا بدا لفرويد أن سبب نسيانها هو كونها مؤلمة أو مشينة ، ولهذا السبب كانت إعادتها

إلى الذاكرة أمراً شاقاً يحتاج إلى مجهود كبير للتغلب على المقاومة re-sistance الشديدة التي كانت دائماً تقف ضد ظهور هذه الذكريات في الشعور The conscious ومن هذه الملاحظات كون فرويد نظريته الهامة في الكبت Repression التي قال عنها إنها الحجر الأساسى الذى يعتمد عليه جميع بناء التحليل النفسى وأهم جزء فيه .

وذهب فرويد إلى أن الكبت يحدث فى الأصل عن الصراع بين رغبتيْن متضادتين ، وذكر نوعين من الصراع بين الرغبات ، ويحدث أحدهما فى دائرة الشعور ، وينتهى بحكم النفس فى صالح إحدى الرغبتين والتخلى عن الأخرى ، وهذا هو الحل السليم للصراع الذى يقع بين الرغبات المتضادة ، ولا ينتج عنه ضرر للنفس ، وإنما يقع الضرر من النوع الثانى ، من الصراع الذى تلجأ فيه النفس بمجرد حدوث الصراع إلى صد إحدى الرغبتين عن الشعور وكبتها دون إعمال الفكر فى هذا الصراع وإصدار حكمها فيه ، وينتج عن ذلك أن تبدأ الرغبة المكبوتة حياة جديدة شاذة فى « اللاشعور » The Unconscious وتبقى هناك محتفظة بطاقتها الحيوية ، وتظل تبحث عن مخرج لانطلاق طاقتها المحبوسة ، فتجده فى الأعراض المرضية التى تتاب العصابين . وعلى ضوء هذا التفكير رأى فرويد أن مهمة الطبيب النفسى ليست هى دفع المريض إلى « التفريغ » و « التنفيس » عن الرغبات المكبوتة كما كان يفعل بروير وفرويد من قبل ، بل هى الكشف عن الرغبات المكبوتة

لإعادتها مرة أخرى إلى دائرة الشعور لكي يواجه المريض من جديد هذا الصراع الذى فشل فى حله سابقاً ، فيعمل الآن على حله بإصدار حكمه فيه تحت إرشاد الطبيب النفسى وتشجيعه ، هى إحلال الحكم الفعلى محل الكبت اللاشعورى ، ومنذ ذلك الوقت أخذ فرويد يسمى طريقته فى العلاج بالتحليل النفسى .

قضى فرويد عشر سنوات (١٨٩٦ - ١٩٠٦) منذ انفصال بروير عنه يعمل منفرداً فى جمع ملاحظاته ، ومواصلة أبحاثه ، وتكوين نظرياته ، فى وقت حرمة المجتمعات العلمية كل تشجيع وتأييد . ثم ابتدأت الأمور تتبدل ابتداء من عام ١٩٠٢ حينما التف حول لأول مرة نفر قليل من شباب الأطباء المعجبين بنظريته الجديدة بقصد تعلم مبادئها واكتساب الخبرة فيها ، ثم أخذ عددهم يزداد رويداً رويداً ، وبدأ ينضم إليهم أفراد من غير الأطباء من أهل الأدب والفنون .

ثم أخذت المعرفة بالنظرية الجديدة تنتشر بين الأطباء فى كثير من البلاد ، وخاصة فى سويسرا حيث أكتسبت الحركة الجديدة صداقة أوجين بلولر Eugene Bleuler المشرف على معهد الأمراض العقلية بالمستشفى العام بمدينة زيوريخ ، ويونج Jung ، أحد مساعدى بلولر . وفى عام ١٩٠٨ عقد أول مؤتمر للتحليل النفسى بمدينة زيوريخ بدعوة من يونج حيث تقرر إصدار مجلة للتحليل النفسى تحت إدارة فرويد وبلولر ، وأسندت رئاسة التحرير إلى يونج . وكان ذلك بدء صفحة جديدة فى تاريخ حركة التحليل النفسى .

وفى عام ١٩٠٩ دعت جامعة كلارك بالولايات المتحدة الأمريكية فرويد ويونج للاشتراك فى احتفال الجامعة بمناسبة مرور عشرين عاماً على تأسيسها فاستقبل فرويد ورميله فى أرض الدنيا الجديدة استقبالاً رائعاً وقوبلت محاضرات فرويد الخمس والمحاضرتان اللتان ألقاهما يونج بجامعة كلارك مقدمة حسنة .

وفى عام ١٩١٠ عقد المؤتمر الثانى التحليل النفسى فى مدينة نورمبرج حيث تم تأليف « جمعية التحليل النفسى الدولية » ، وتقرر فى ذلك المؤتمر إصدار نشرة دورية تكون رابطة الاتصال بين الجمعية الرئيسية وبين فروعها الأخرى فى برلين برئاسة أبراهام Abraham ، وفى زيوريخ برئاسة يونج ، وفى نيويورك برئاسة ألفرد أدلر Alfred Adler ، وبعد ذلك أصدر أدلر وشتيكل Stekel مجلة ثانية للتحليل النفسى فى فيينا .

ثم توالى بعد ذلك مؤتمرات جمعية التحليل النفسى ، وتكونت لها فروع فى معظم الأقطار الغربية ، وأخذت تعاليم التحليل النفسى فى الانتشار وبدأت تجلب إليها كثيراً من الأصدقاء والأتباع . لا من رجال الطب فقط ، بل من رجال العلوم والفنون المختلفة أيضاً .

تتبيه

«الموجز فى التحليل النفسى» من أواخر أعمال فرويد . فقد بدأه فى يوليه ١٩٣٨ ولكنه لم يمض فى كتابته إلى انتهاء فظل ناقصاً لم يتجاوز الجزء الثالث . وليس ثمة ما يشير إلى الطريق الذى اختطه فرويد لنفسه ولا إلى الإتجاه الذى اعتزم السير فيه فى بقية هذا الكتاب . وقد كان الجزء الأكبر من الفصل الثالث مكتوباً بعبارات مقتضبة مما اضطر اللجنة المشرفة على إخراج «الطبعة النهائية» من أعمال فرويد إلى إعادة كتابتها ثانية بما يتمشى وروح الكتاب . وقد اقتبس عنوان الجزء الأول وهو «طبيعة الحياة النفسية» من نسخة متأخرة من نفس المخطوط (أكتوبر ١٩٣٨) بعنوان «بعض الدروس الأولية فى التحليل النفسى» Some Elementary Lessons in Psycho-analysis

ونشر «الموجز فى التحليل النفسى» أول ما نشر فى المجلة الدولية للتحليل النفسى وإيماجو (International Zeitschrift for Psychoanalyse u. Imago) الجزء الخامس والعشرين ، ١٩٤٠ ، العدد الأول . ثم نشر فى الطبعة النهائية لأعمال فرويد ، الجزء السابع.

عشر (Gesammelte Werke, Band XVII) لندن ١٩٤٦ ، وهي
الطبعة التي اعتمدنا عليها في هذه الترجمة .

ويجد القارئ في نهاية النص المترجم ثبوتاً بالمصطلحات الواردة فيه
مع مقابلاتها في الألمانية والإنجليزية والفرنسية وشرح مطول لمعنى كل
منها كما ورد في كتابات فرويد المختلفة .

المترجمان

ملاحظات تمهيدية

الغاية من هذا المؤلف الموجز جمع نظريات التحليل النفسي وعرضها عرضاً تقريرياً في أدق عبارة وأبلغها تركيزاً . ولا نبغى بذلك كسب الثقة ولا بلوغ الإقناع .

إن تعاليم التحليل النفسي تقوم على عدد لا يحصى من المشاهدات والتجارب . فمن لم يختبر هذه التجارب وتلك المشاهدات في نفسه أو في الآخرين فلن يتسنى له أن يصل إلى حكم نزيه بشأن التحليل النفسي .

القسم الأول
طبيعة الحياة النفسية

الفصل الأول الجهاز النفسى

يضع التحليل النفسى مسلمة أساسية على الفكر الفلسفى مناقشتها ، وإن كان تبريرها يقع فى نتائجها . فإن ما نسميه نفسنا (الحياة النفسية) معروف لدينا على نحوين : الأول عضوها الجسمى ومسرحها ذاتهما ، أى المخ (الجهاز العصبى) ، والثانى أفعالنا الشعورية وهى معطيات مباشرة لا يمكن لوصف أيّا ما كان أن يزيدا قربًا منا . وكل ما يقع بين هذين الطرفين مجهول لنا . وليس ثمة علاقة مباشرة بينهما على ما نعلم . وإن كان ثمة علاقة فهى لا تزودنا إلا بتعيين دقيق لمراكز العمليات الشعورية ولكنها لن تعيننا فى شىء على فهمها .

ويتصل فرضانا بهاتين النهايتين أو البدايتين لمعرفتنا . الفرض الأول خاص بتحديد مناطق العمليات النفسية^(١) . فنحن نفترض أن الحياة النفسية وظيفّة لجهاز نصف امتداده المكانى وتألّفه من أقسام عدة ،

(١) الفرض الثانى خاص بالاشعور ولا يعرض له فرويد إلا فى الفصل الرابع .
المترجمان .

ونتصوره بهذه المثابة شبيهاً بالمنظار المقرب أو بالمجهر أو ما إلى ذلك . ويعتبر تتبع هذا التصور إلى غايته تجديداً علمياً ، رغم ما حاوله البعض من قبل للاقتراب من هذا التصور^(١) .

وقد حصلنا على ما نعرفه عن هذا الجهاز النفسى من دراسة التطور الفردى للوجود الإنسانى ، وقد أطلقنا على أقدم هذه المناطق (أو المنظمات) النفسية اسم الهو ، ومضمونه كل ما هو موروث ، كل ما يظهر عند الميلاد ، كل ما هو مثبت فى الجبلة . لذا فهو يتألف أولاً وقبل كل شئ من الميول الغريزية التى تصدر عن التنظيم الجسمى وتجد ههنا أول تعبير نفسى عن ذاتها فى صور نجهلها .

ويتأثير العالم الخارجى الواقعى المحيط بنا ، يطرأ على جزء من الهو تغيير خاص . فما كان فى الأصل طبقة لحائية مزودة بأعضاء لتلقى المنبهات وبأجهزة للوقاية من الإثارة ، ينشأ عنه تنظيم خاص يتوسط الهو والعالم الخارجى . وهذا القسم من حياتنا النفسية نسميه الأنا .

الخصائص الرئيسية للأنا : يسيطر الأنا على الحركات الإرادية ، نتيجة للعلاقة السابقة التكوين بين الإدراك الحسى والفعل العضلى ، كما يقوم بمهمة حفظ الذات . وهو يؤدي هذه المهمة بأن يتعلم معالجة

(١) الإشارة هنا إلى الفيلسوف وعالم النفس الألمانى فشر (١٨٠١-١٨٨٧) المترجمان . راجع «تفسير الأحلام» لفرويد ، ص ٢٧ وما يليها . ترجمة مصطفى صفوان . دار المعارف القاهرة ١٩٥٩ .

المثيرات الخارجية ، فيدخر خبرات تتعلق بها (فى الذاكرة) ويتفادى المثيرات المفرطة فى القوة (بالهرب) ، ويستقبل المثيرات المعتدلة (بالتكيف) . وهو يتعلم أخيراً تعديل العالم الخارجى تعديلاً يعود عليه بالنفع (النشاط) . ففى الداخل - تجاه الهسو - يكتسب السيادة على مطالب الدوافع الغريزية ، بأن يقرر ما إذا كان يجب السماح لها بالإشباع أو إرجاء هذا الإشباع لأحيان وظروف مواتية فى العالم الخارجى أو قمع تنبيهاتها أصلاً . وهو فى أفعاله خاضع لاعتبار التوترات التى تحدثها المنبهات القائمة فيه الواردة عليه فيستشعر ارتفاعها ألماً وإنخفاضها لذة . بيد أن من المحتمل أن ما يستشعره لذة أو ألماً ليس الدرجة المطلقة لهذه التوترات بل هو شىء مرده إلى إيقاع تغيرها . والأنا يسعى وراء اللذة ويتجنب الألم . والزيادة المترتبة أو المتوقعة فى الألم يستجاب لها بنذير القلق ، والمناسبة التى تحدث فيها ، سواء كانت تهدده من خارج أو من داخل ، تسمى خطراً . وبين الحين والحين يفقد الأنا صلته بالعالم الخارجى ويعود إلى حالة النوم ، حيث يحدث فى تنظيمه تغيرات بعيدة المدى . ويمكن أن نستنتج من حالة النوم أن هذا التنظيم ما هو إلا توزيع معين للطاقة النفسية .

وكراسب من رواسب فترة الطفولة الطويلة التى يعيش فيها الإنسان الناشئ معتمداً على والديه ، تتكون فى الأنا منظمة خاصة يمتد فيها تأثير الوالدين هذا ويطلق عليها اسم الأنا الأعلى . ويقدر ما ينفصل هذا الأنا الأعلى عن الأنا أو يعارضه ، فهو يكون قوة ثالثة ينبغى على الأنا أن يعمل لها حسابها .

ومن ثمة يكون الأنا مصيباً في فعله إذا أشبع مطالب الهو والأنا الأعلى والواقع في نفس الآن . فتمكن من التوفيق بين مقتضياتها المتباينة . ويمكن - بلا استثناء - تفهم تفاصيل العلاقة بين الأنا والأنا الأعلى بالرجوع إلى علاقة الطفل بوالديه . ولا يقتصر تأثير الوالدين - بطبيعة الحال - على طبيعة الوالدين فحسب ، بل إن من خلالهما ليظهر التأثير المتأصل للتقاليد العائلية والعنصرية والقومية ، كما تدخل فيه مطالب البيئة الاجتماعية التي يمثلانها . وعلى النحو نفسه يتلقى الأنا الأعلى للطفل - إبان تطوره الفردي - إضافات جديدة من خلفاء الأبوين ومن يقوم مقامهما في الأطوار اللاحقة كالمعلمين والشخصيات البارزة في الحياة العامة والمثل العليا الموقرة في المجتمع . ومن البين أن الهو والأنا الأعلى - على تباينهما الأساسي - يتفقان في أنهما يمثلان الماضي . فالهو يمثل آثار الوراثة ويمثل الأنا الأعلى - في جوهره - ما أخذ عن الآخرين . أما الأنا فمحدد - في المحل الأول - بما يخبره بالذات أي الأحداث العرضية الفعلية . وهذا التخطيط العام للجهاز النفسى يمكن أن يصدق بالمثل على الحيوانات العليا الشبيهة بالإنسان من الناحية النفسية . ويجب أن نسلم بوجود الأنا الأعلى حيثما وجدت فترة طويلة من الاعتماد الطفلى ، كما هو الحال عند الإنسان . أما التمييز بين الأنا والهو فأمر لا بد من التسليم به .

ولم يتناول بعد علم نفس الحيوان المشكلة التي عرضناها ههنا .

الفصل الثانى

نظرية الغرائز

تعبّر قوة الهو عن الغاية الحقيقية لحياة الكائن العضوى . وتنحصر هذه الغاية فى إشباع حاجاته الفطرية . ولا يمكن وصف الهو بأنه يستهدف المحافظة على الحياة ولا اتقاء الأخطار باستخدام القلق . فتلك مهمة الأنا ، الذى يجب عليه أيضاً أن يكتشف أنسب الوسائل وأقلها خطراً للحصول على الإشباع ، مع اعتبار العالم الخارجى ، وقد يكون للأنا الأعلى مطالب جديدة ، ولكن وظيفته الرئيسية تظل تقييد الإشباعات .

والقوة التى نفترض وجودها وراء توترات حاجات الهو نسميها الغرائز ، وهى تمثل المطالب الجسدية لدى الحياة النفسية . ومع أنها هى العلة الأخيرة لكل نشاط فهى محافظة بالطبع ؛ وكل حالة يبلغها الكائن تولد حينئذٍ إلى استعادة حالة تركها لتوه . ويمكن أن نميز بين عدد غير محدود من الغرائز ، بل إن هذا هو السائد فعلاً . أما بالنسبة لنا فيهمنا إمكان إرجاع هذه الغرائز العديدة إلى عدد قليل معين من

الغرائز الأساسية. وقد علمتنا التجربة أن من الممكن للغرائز تغيير هدفها (عن طريق الإراحة) وأنها يستطيع أن يحل بعضها محل البعض ، بأن تنتقل طاقة غريزة ما إلى أخرى والعملية الأخيرة لا تزال غير مفهومة تمامًا. وبعد تردد وتذبذب طويلين استقر رأينا على افتراض وجود غريزتين أساسيتين فقط . هما الإروس وغريزة التدمير (ويقع فى نطاق الإروس التعارض بين غريزة حفظ الذات وغريزة حفظ النوع ، وكذلك غريزة حب الذات وغريزة حب الموضوع) . وهدف الإروس إنشاء وحدات جديدة لا تفتأ تزيد حجمًا ، والاحتفاظ بها على هذا النحو ، ومن ثمة فهدفها الربط . أما هدف الثانية فهو على الضد : حل الروابط وبالتالي تدمير الأشياء . ويمكن أن نتصور أن الغاية القصوى لغريزة التدمير هى رد الحى إلى الحالة اللاعضوية . ولذا نسميها أيضًا غريزة الموت . وإذا افترضنا أن الحى متأخر فى الظهور عن غير الحى ، وأنه خرج منه لكان جليًا أن غريزة الموت تطابق المبدأ المذكور وهو أن الغريزة تنزع إلى العود إلى حالة سابقة . أما بالنسبة إلى الإروس (أو غريزة الحب) فلا يمكننا تطبيق مثل هذا القول . وإلا كان لزامًا علينا أن نسلم بأن الجوهر الحى كان وحدة يومًا ما - ثم انقسم إلى أجزاء ويميل الآن إلى معاودة الاتحاد^(١). وفى الوظائف الحيوية تتعارض الغريزتان

(١) تخيل الشعراء شيئًا شبيهًا بهذا ، ولكننا لا نعرف ما يمثله فى التاريخ الواقعى للجوهر الحى .

الأساسيتان أو تتحدان: فعملية الغذاء تدمير للموضوع الغاية النهائية منه إدماجه ، والعملية الجنسية عدوان يرمى إلى أوثق اتحاد . هذا الانسجام والتباين بين الغريزتين الأساسيتين يضيفان على مظاهر الحياة تنوعها . والتناظر بين هاتين الغريزتين الأساسيتين يتجاوز نطاق الكائنات الحية إلى ميدان الكائنات غير الحية ، حيث القوتان المتعارضتان المهيمنتان ، قوتا التجاذب والتنافر^(١) .

وللتفاوت في نسبة امتزاج الغرائز نتائج بينة ظاهرة - فزيادة العدوان الجنسي زيادة مفرطة تحول المحب إلى قاتل من أجل اللذة الجنسية ، كما أن الانخفاض الشديد في العامل العدوانى يجعل منه خجولاً أو عنينا .

ويجب أن نستبعد حصر أى من هاتين الغريزتين في منطقة واحدة من النفس ؛ فلا بد من وجودهما في كل مكان . ويمكننا أن نصور الموقف في بادىء الأمر بأن نفترض أن كل الطاقة المتيسرة للإروس - وهى التى سنسميها من الآن بالليبيدو - موجودة فى الأنا والهوى قبل تفاضلها ، وأنها تعمل على معادلة الحوافز التدميرية المصاحبة لها (ويعورنا اصطلاح مماثل «الليبيدو» للدلالة على طاقة غريزة التدمير) . وبعد ذلك يسهل علينا نسبياً أن نتبع ما يصير إليه الليبيدو ، وهو أمر أشد مشقة فى حالة غريزة التدمير .

(١) هذا التصور للقوى الأساسية أو الغرائز الذى لا يزال يقاومه المحللون على أنحاء عدة كان مألوفاً من قبل لدى أنبادوقليس فيلسوف أغريغنتا .

وتظل هذه الغريزة ساكنة مادامت تعمل فى الداخل بوصفها غريزة الموت ، ولا تظهر لنا إلا بعد أن تتحول إلى الخارج بوصفها غريزة التدمير . ويبدو أن حدوث هذا ضرورى لحفظ الفرد ويساعد الجهار العضلي فى هذا التحول . ويتكون الأنا الأعلى تثبت كميات كبيرة من الغريزة العدوانية داخل الأنا وتعمل ضد الذات على نحو تدميرى . وهذا أحد الأخطار الصحية التى يتقبلها الإنسان فى سبيل النمو الحضارى . وكبح العدوان ضار بوجه عام ، فهو يعمل على الإسقام (الإهلاك) . والشخص فى سورة الغضب يبين كيف يتم الانتقال من العدوان المقيد إلى تدمير الذات ، وذلك بتحويل عدوانه على ذاته ، فهو يجذب شعره أو يلطم وجهه بقبضتيه ، وهذه معاملة كان يود لو وجهها إلى شخص غيره . وعلى أية حال يظل قسم من العدوان الموجه إلى الذات فى الداخل حتى ينجح أخيراً فى أن يفضى بالفرد إلى الموت . وربما كان ذلك أولاً حين تستنفد طاقته الليبيدية ، أو تثبت بصورة ضارة . ومن ثمة يمكن أن نفترض على وجه العموم أن الفرد يموت بسبب صراعاته الداخلية، فى حين أن النوع يموت من جراء كفاحه الفاشل ضد العالم الخارجى . عندما تعتريه تغيرات لا يمكن معالجتها بوسائل التكيف التى اكتسبها .

وعسير أن نقول شيئاً عن سلوك الطاقة الليبيدية فى الهو وفى الأنا الأعلى . وكل ما نعرفه عنها يتعلق بالأنا ، حيث تدخر فى البداية كل الكمية المتاحة من الطاقة الليبيدية . نسمى هذه الحالة بالنرجسية الأولية

المطلقة . ويبقى هذا الوضع حتى يبدأ الأنا فى شحن تصورات الموضوع بالليبدو ، فيتحول الليبدو النرجسى إلى الليبدو الموضوعى . ويظل الأنا طوال الحياة المستودع الكبير الذى ترسل منه الشحنات الليبيدية إلى الموضوعات ، وكذلك تسحب إليه ثانية ، كما يصنع جسم بروتوبلازمى بأقدامه الكاذبة . ولا يحدث إلا فى حالة الإنغماس الكلى فى الحب أن تنتقل الكمية الرئيسية من الليبدو إلى الموضوع ، وأن يقوم الموضوع إلى حد ما مقام الأنا . ولليبدو طابع مهم للحياة هو تنقله أو السهولة التى ينتقل بها من موضوع إلى آخر . وبالعكس يحدث أحياناً أن يتثبت الليبدو فى موضوعات معينة تثبتاً غالباً ما يبقى طوال الحياة .

ولا ريب فى أن لليبدو مصادر جسمية ، وأنه يتدفق إلى الأنا من أعضاء وأجزاء مختلفة من الجسم . وهو ما يتجلى أوضح تجلٍ فى حالة ذلك القسم من الليبدو الذى يعرف بالتهيج الجنسى ، وذلك بالنظر إلى غايته الغريزية . ونحن نطلق على أبرز أجزاء الجسم التى ينبعث منها هذا الليبدو اسم المناطق الشهوية وإن كان الجسم كله فى الواقع منطقة شهوية مماثلة . وأفضل ما نعرفه عن الإيروس ومن ثمة عن علاماته مستمد من دراسة الوظيفة الجنسية ، وهى مطابقة للإيروس فى العرف الشعبى ، بل وفى نظريتنا كذلك . وقد تمكنا من تكوين صورة عن السبيل الذى يطرقة الحافز الجنسى ، الذى قيض له أن يؤثر فى حياتنا تأثيراً حاسماً . فقد نما هذا الحافز نمواً تدريجياً من إضافات متتالية لعدد من الغرائز الجزئية التى تمثل مناطق شهوية معينة .

الفصل الثالث

نمو الوظيفة الجنسية

يدعى التصور الشائع أن الحياة الجنسية لدى الإنسان هي في جوهرها الميل إلى اتصال الأعضاء التناسلية لشخص ما بما يقابلها عند شخص من الجنس الآخر . ويعتبر تقبيل هذا الجسم الغريب ولمسه والنظر إليه ظواهر ثانوية وأفعالاً تمهيدية . ولا بد لهذا الميل أن يظهر مع البلوغ ، ومن ثمة في عهد النضوج الجنسي ، وأنه يستهدف الإنسال . على أن ثمة حقائق معروفة لا تدخل في إطار هذا التصور :

١ - فمما يلفت النظر ، أن هناك أشخاصاً لا يستهويهم إلا أفراد من جنسهم ، والأعضاء التناسلية لهؤلاء .

٢ - ويلفت النظر أيضاً أن هناك أشخاصاً تتسم رغباتهم بالطابع الجنسي ، ولكنهم في الوقت عينه لا يهتمون بالأعضاء التناسلية ولا باستخدامها الطبيعي . وأمثال هؤلاء الأشخاص يسمون بالمنحرفين .

٣ - وأخيراً . فمن الغريب أن الأطفال الذين يعتبرون لهذا السبب منحلين ، يبدون اهتماماً مبكراً جداً بأعضائهم التناسلية وتظهر عليهم أمارات التهيج بها .

وغنى عن البيان أن التحليل النفسى أثار الاستغراب والاستنكار حين عارض كل الآراء السائدة عن الجنسية مستنداً - فيما استند - إلى هذه الوقائع الثلاث المغفلة وفيما يلى نتائجه الرئيسية :

(أ) الحياة الجنسية لا تبدأ أولاً عند البلوغ ، وإنما تتبدى عقب الميلاد بمظاهر واضحة .

(ب) من الضرورى أن نميز تمييزاً قاطعاً بين مفهومى «الجنسى» و«التناسلى» . فالأول هو المفهوم الأعم ويضم أنواعاً عدة من النشاط لا شأن لها بالأعضاء التناسلية .

(ج) تتضمن الحياة الجنسية وظيفة الحصول على اللذة من مناطق جسمية . وهى وظيفة ترتب - فيما بعد - لخدمة الإنسال ، وغالباً ما لا تتطابق هاتان الوظيفتان تمام التطابق .

وبوجه أعظم اهتمام بالطبع إلى أولى القضايا وهى أغربها جميعاً . فنشاهد فى عهد الطفولة المبكر علامات للنشاط الجنسى لا يمكن أن ينكر عليها صفة الجنسية إلا رأى المغرض القديم ، وهى ترتبط بالظواهر النفسية التى نجدها فيما بعد ، فى حياة الحب عند البالغين ، كالتعلق

بموضوعات معينة ، والغيرة ، وما إلى ذلك ، ويتبين فوق ذلك أن هذه الظواهر التي تنبعث في طور الطفل المبكر تكون جزءاً من عملية تطور منتظمة ، وأنها تمر بنمو مطرد حتى تصل الذروة في نهاية العام الخامس تقريباً . تليها فترة سكون . وإبان ذلك يقف التقدم وينسى الكثير وينكص . وفي نهاية هذه الفترة التي نسميها مرحلة الكمون - تستأنف الحياة الجنسية عند البلوغ - أو أنها تزدهر ثانية إن صح التعبير . وهذا يؤدي بنا إلى حقيقة هامة - وهي أن الحياة الجنسية ترد على دورتين ، وهو ما لا تجده إلا عند الإنسان . ولا شك أن له أثراً بالغ الأهمية في تكوينه^(١) . ومما له دلالة أن أحداث هذه الفترة الجنسية المبكرة - ما عدا النزر اليسير منها - تخضع لفقدان الذاكرة الطفلي ، وأن حدودنا الخاصة بأصول الأعصاب وطريقتنا في العلاج التحليلي مرتبطة بهذه التصورات . وتتبع التطور في هذه المرحلة المبكرة . أمدنا أيضاً بشواهد تؤيد نتائجنا الأخرى .

وأول عضو يظهر بوصفه منطقة شهوية تعرض مطالبتها الليبيدية على النفس هي الفم منذ الميلاد . وتتأثر النفس بوظيفته الليبيدية . ففي

(١) هناك فرض يذهب إلى أن الإنسان انحدر عن حيوان ثديي كان يبلغ النضوج الجسمي في سن الخامسة ، ثم طرأ على النوع من الأحداث الكبرى الخارجية المراد نموه وقطع التطور الجنسي ويمكن أن يكون لهذا علاقة أيضاً ببعض الفروق الأخرى بين الحياة الجنسية عند الإنسان والحياة الجنسية عند بعض الحيوانات ، كزوال الموسم الليبيدية ، وتحول دور الحيض في العلاقة الجنسية .

بادئ الأمر ، يتركز النشاط النفسى كله حول إشباع حاجة هذه المنطقة . ولا شك فى أن هذه المنطقة تقوم أولاً وقبل كل شيء بتحقيق حفظ الذات بواسطة التغذية . ولكن يجب ألا نخلط بين الفسيولوجى وعلم النفس . فإلحاح الطفل فى المص وتشبثه به فى مرحلة مبكرة ينم بوضوح عن حاجة إلى الإشباع ، على الرغم من أنها حاجة تنبعث عن تناول الغذاء وتتأثر به ، إلا أنها تسعى إلى الحصول على لذة مستقلة عن التغذية ، وبالتالي يمكن ويجب أن توصف بأنها جنسية .

وفى خلال هذه المرحلة الفمية ، تظهر الحوافز السادية فى فترات متقطعة بظهور الأسنان . ويزداد مقدار هذه الحوافز زيادة عظيمة إبان المرحلة الثانية التى نسميها «المرحلة السادية الشرجية» ، لأن الإشباع فيها يطلب فى العدوان وفى وظيفة الإخراج . ونبرر هنا إدماج الحوافز العدوانية فى الليبيدو بافتراض أن السادية مزيج غريزى لحوافز لىبيدية خالصة مع حوافز تدميرية خالصة ، وهو مزيج لا يكف أبداً^(١) .

المرحلة الثالثة نسميها «المرحلة القضيبية» . وهى على نحو ما بشير بالشكل النهائى للحياة الجنسية ، بل وتشبهها شبيهاً عظيماً . وجدير بنا

(١) يصح هنا أن نتساءل عما إذا كان إشباع الحوافز الغريزية التدميرية الخالصة لاذا ، وعما إذا كان يمكن حدوث تدمير خالص خلو من أى مضمون لىبىدى . ويبدو أن إشباع ما يتبقى فى الأنا من غريزة الموت لا يحدث مشاعر لاذا ، وإن كانت الماروشية تمثل مزيجاً شبيهاً بالسادية .

أن نلاحظ أن ما يلعب دوراً هاماً في هذه المرحلة ليس هو الأعضاء التناسلية عند الجنسين ، بل هو العضو التناسلي الذكر فحسب (القضيبي). أما الأعضاء التناسلية للأنثى فتظل مجهولة رمزاً طويلاً . فالطفل في محاولته فهم العمليات الجنسية ، يأخذ بالنظرية المخرجة الجديدة بالاعتبار(*) وهي نظرية لها تبرير تكويني^(١) .

ومع المرحلة القضيبيية وفي خلالها ، تبلغ الجنسية الطفلية الأولى ذروتها وتقترب من اضمحلالها . ومن الآن فصاعداً تختلف مصائر الصبيان والبنات . فقد بدأ الفريقان ونشاطهما الذهني موقوف على البحث الجنسي ، وكلاهما اشتركا في افتراض وجود القضيبي عند الجميع . ولكن طرق الجنسين تفترق الآن ، فيدخل الصبي الطور الأوديبى ، ويأخذ يعبث بقضيبيه عبيثاً تصبحه أخيلة أنه يزاوِل به نوعاً من النشاط الجنسي ذا صلة بأمه ، إلى أن يعاني أعظم صدمة في حياته ، تحت تأثير تلاقي التهديد بالخصاء برؤيته المرأة عاطلة عن القضيبي ، وبذلك يدخل طور الكمون بكل نتائجه . أما البنت ، فبعد سعيها سعيًا فاشلاً في مناقسة الصبية ، تدرك خلوها عن القضيبي ، أو على الأصح

(١) يرى البعض أن هناك تهيجات فرجية في مرحلة مبكرة . ولكن الأرجح أنها تهيجات في البظر أى في عضو شبيه بالقضيبي ، بحيث لا يمكن أن تمنعنا هذه الحقيقة عن وصف المرحلة بأنها قضيبيية .

(*) يعتقد الطفل أن أعضاء الأنثى التناسلية لا تختلف عن أعضاء الذكر وأن الجماع والولادة يتمان جميعاً عن طريق الشرج - المترجمان .

تفاهة بظرها، مما يخلف آثاراً دائمة في نمو الخلق ؛ ويغلب أن تؤدي هذه الخيبة الأولى في المنافسة إلى العزوف التام عن الحياة الجنسية .

ونخطيء إذا اعتقدنا أن هذه المراحل الثلاث تتميز عن بعضها تميزاً دقيقاً ، فقد تظهر واحدة منها إلى جانب الأخرى ، أو تتداخل معها ، أو تتلاقى جميعاً .

وفي الأطوار الأولى ، يعمل كل حافز غريزي جزئى على طلب اللذة مستقلاً عن سائر الحوافز . أما في المرحلة القضيبيية فنجد بوادر تنظيم تخضع فيه سائر الحوافز لسيطرة أعضاء التناسل ، ويندمج كثير من ضروب نشدان اللذة في الوظيفة الجنسية .

والتنظيم الكامل لا يدرك إلا عند البلوغ ، في مرحلة رابعة تناسلية وهنا يقوم نظام نجد فيه :

- (١) أن كثيراً من الشحنات الليبيدية الأولى تُستبقي .
- (٢) وأن شحنات أخرى تندمج في الوظيفة الجنسية بوصفها أفعالاً تمهيدية أو ثانوية يحدث إشباعها ما يسمى باللدّه التمهيدية .
- (٣) وميول أخرى تستبعد من هذا التنظيم ، فإما أن تقمع (أو تكبت) بوجه عام ، أو أن تستخدم داخل الأنا في طريق آخر ، فتكون سمات خلقية ، أو تخضع للتسامى بتعطّل أهدافها .

ولكن هذه العملية لا تتحقق دائماً على الوجه الأكمل . فضرور الكف في تطورها تكشف عن نفسها في الاضطرابات المختلفة في الحياة

الجنسية . فيظل الليبيدو إذ ذاك متشبثًا بحالات المراحل الأولى . وهنا يحدث اضطراب في الهدف الجنسي سوى مميز للانحراف . ومثل هذا الكف في النمو الجنسي نجده مثلاً في الجنسية المثلية - إذا كانت سافرة . وبين التحليل أن التعلق بشخص من نفس الجنس كان موجوداً في وقت ما في كل الحالات ، وفي معظم الحالات ظلت هذه الجنسية المثلية في حالة كمون . ومما يزيد الأمر تعقيداً بوجه عام أن العمليات الضرورية للوصول إلى حالة سوية لا تتحقق كلها ، ولا تنعدم بالمرة ؛ بل هي تتحقق تحققاً جزئياً بحيث تتوقف الصورة النهائية على هذه العلاقات الكمية . وهكذا فإن التنظيم التناسلي يتحقق ، ولكنه يضعف نتيجة لوجود أجزاء من الليبيدو لم تتوحد وظلت مثبتة على موضوعات وأهداف ثابتة سابقة على الطور التناسلي . ويبدو مثل هذا الضعف في ميل الليبيدو إلى العودة إلى سابق أحواله قبل التناسلية (النكوص) في حالات عدم الإشباع أو الصعوبات الحقيقية .

وقد أمكننا أثناء دراستنا للوظائف الجنسية أن نصل إلى اقتناع أول مؤقت . أو على الأصح ، إلى افتراض يتصل بمسألتين ستبين فيما بعد أهميتهما بالنسبة إلى موضوعنا كله . أولاً : - أن الظواهر السوية والشاذة التي نلاحظها (أعني وصف ظواهر الموضوع) ، تستلزم أن نصفها من زاوية الديناميات والكم (في حالتنا هذه من زاوية التوزيع الكمي للطاقة الليبيدية) . ثانياً : أن أصول الاضطرابات التي ندرسها يجب البحث عنها في تاريخ تطور الفرد ، أعني في العهد الأول من حياته .

الفصل الرابع

الكيفيات النفسية

وصفنا بنيان الجهاز النفسى والطاقات أو القوى الفعالة فيه ، وتبعنا فى مثال مميز ملفت كيف تنتظم تلك الطاقات ولا سيما الليبيدو فى وظيفة فسيولوجية مرتبة لغاية حفظ النوع . ولم يكن فى هذا كله ما يوضح الطابع النوعى لما هو نفسى ، إذا استثنينا بطبيعة الحال هذه الحقيقة الواضحة : وهى أن الطاقات إنما هى أساس الوظائف التى نسميها حياتنا النفسية . ولننظر الآن فى خاصية تنفرد بها الظاهرة النفسية ويراهها العرف السائد مطابقة لها .

إن بداية هذا البحث واقعة لا مثيل لها تأبى كل توضيح ووصف وهى الشعور . وهكذا فإذا تحدث المرء عن الشعور ، عرف المقصود بذلك مباشرة ، بخبرة شخصية إلى أبعد مدى^(١) . ويقنع الكثيرون من بين المشتغلين بالعلم وغير المشتغلين به ، بافتراض أن الشعور هو وحده

(١) يعتقد اتجاه متطرف مثل السلوكية الأمريكية المولد أن من الممكن إقامة علم النفس يتجاهل هذه الواقعة الأساسية |

النفسيّ ومن ثمة لا يبقى لعلم النفس من عمل إلا التمييز داخل نطاق الظواهر النفسية بين الإدراكات الحسية ، والمشاعر الوجدانية ، والعمليات الفكرية ، والأفعال الإرادية . ومع ذلك فإن من المتفق عليه أن هذه العمليات الشعورية ليست سلاسل متصلة متماسكة ، بحيث لا نرى مفراً من افتراض وجود عمليات مادية أو جسمية تصاحب العمليات النفسية ، ولا بد أن نسلم بأن هذه العمليات الجسمية أكثر تماسكاً من السلاسل النفسية ، من حيث إن بعضها يقابله عمليات شعورية موازية له أما البعض الآخر فلا يقابله شيء . فطبيعي إذاً في علم النفس أن نبرز هذه العمليات الجسمية . وأن نعتبرها الجوهر الحقيقي للظاهرة النفسية ، وأن نحاول الوصول إلى تقدير جديد للعمليات الشعورية . إلا أن غالبية الفلاسفة وكثيرين غيرهم يناهضون هذا الرأي ويصرحون بأن اللاشعور النفسي خُلف .

ولكن التحليل النفسي مضطر إلى عمل هذا بالذات ، وهذا هو فرضه الأساسي الثاني . فالتحليل النفسي يصرح بأن ما رعمناه من عمليات جسمية مصاحبة ، ليست إلا الظواهر النفسية في جوهرها ، ويغفل مؤقتاً الكيفية الشعورية وهو في ذلك ليس وحده . فقد عبر كثير من المفكرين كتيودور لپس مثلاً - عن نفس الرأي في ألفاظ مماثلة . وقد اشتدت الحاجة إلى إدخال مفهوم اللاشعور في التفكير السيكلوجي ، بعدما بدا من قصور التصور السائد عن طبيعة الظاهرة النفسية ، ولكن هذا

الإتجاه كان عديم التأثير فى العلم ، من جراء ما اكتنفه من غموض وعدم تحديد.

وقد يبدو أن هذا الخلاف بين التحليل النفسى والفلسفة ليس إلا مسألة تافهة تنصب على التعريف : إن كان يجب إطلاق اسم النفسى على إحدى هذه السلاسل أو السلسلة الأخرى . والواقع أن هذه الخطوة على أعظم جانب من الخطورة . فالفريق الذى لا يعنى إلا بدراسة الشعور لا يستطيع مطلقاً أن يتعدى هذه السلسلة المتقطعة من الظواهر التى يبدو بوضوح أنها تعتمد على ظواهر جسمية مغايرة ، فى حين أن رأى الآخر الذى يذهب إلى أن الظاهرة النفسية هى فى ذاتها لا شعورية يتيح لعلم النفس أن يتبوأ مكانة بوصفه علماً طبيعياً بين العلوم الطبيعية الأخرى . فالعمليات التى يعنى بها ليست - فى ذاتها - مدركة ، مثلها فى ذلك مثل العمليات التى تبحث فيها العلوم الأخرى ، كالعمليات الكيميائية أو الطبيعية ؛ ولكن من الممكن تعيين القوانين التى تسيطر على هذه العمليات ، وتتبع علاقاتها المتبادلة واعتماد بعضها على بعض على نطاق واسع . وهكذا يمكن أن نصل إلى فهم خاص بمجال الظواهر الطبيعية . ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بوضع فروض جديدة ، وخلق مفهومات مستحدثة . ولا ينبغى أن نغض من قدر هذه الفروض والمفاهيم فتعتبرها شواهد على تخبطنا ، بل ينبغى على الضد أن نقدرها حق قدرها وأن نعتبرها منمية للعلم ، مزيدة فى ثرائه . بل ويجدر بنا أن ننظر إليها

بوصفها تفسيرات تقريبية مساوية فى القيمة لمثيلاتها فى العلوم الطبيعية الأخرى . ونحن ننتظر أن تعدل هذه التفسيرات التقريبية وأن تصحح وأن يزيد تحديدها دقة ، بقدر ما تزيد تجاربنا وتمحص . فليس من الغرابة فى شىء إذن أن تظل مفاهيم العلم الجديد ومبادئه الأساسية (الغريزة والطاقة العصبية إلخ) على هذا القدر من عدم التحديد . كما ظلت مفاهيم العلوم القديمة (القوة ، والكتلة ، والجذب) .

تقوم العلوم جميعاً على مشاهدات وتجارب نصل إليها من خلال جهازنا النفسى . ولكن لما كان موضوع علمنا هو هذا الجهاز بالذات فإن المماثلة تنتهى هنا . فنحن نباشر مشاهداتنا من خلال جهاز الإدراك الحسى ذاته بمساعدة الفجوات فى الظواهر النفسية مباشرة بأن نملأها باستدلالات وجيهة ونترجمها إلى مادة شعورية . وبهذه الطريقة نضيف إلى الظواهر النفسية اللاشعورية سلسلة من العمليات الشعورية مكملة لها . ويقوم اليقين النسبى فى علمنا النفسى على وجهة هذه الاستدلالات . وسيجد كل من يتعمق فى هذا العمل أن طرقنا العلاجية تصمد أمام كل نقد .

وفى هذا العمل تواجهنا ضرورة التمييز بين أحوال معينة هى التى نسميها بالكيفيات النفسية . ولا حاجة بنا إلى تحديد ما نعنيه بالشعور ، فهو نفسه معنى الشعور لدى الفلاسفة والعامة . وكل ما عدا ذلك من الظواهر النفسية فهو عندنا لا شعورى . ولابد لنا بعد ذلك من التسليم

بانقسام هذا اللاشعور انقسامًا هامًا : فبعض العمليات تغدو شعورية في يسر ، ثم لا تلبث أن تعود إلى سيرتها الأولى ، ولكنها قد تصبح شعورية ثانية بلا عناء ، أو كما يقال - يمكن أن تستعاد وأن تتذكر . وهذا ينهنا إلى أن الشعور عادة حال سريع الزوال ، فما هو شعورى يظل شعوريًا لحظة فحسب . وإذا كانت إدراكاتنا الحسية لا تؤيد هذا القول . فإن التناقض ليس إلا ظاهريًا . ويمكن أن يفسر بأن منبهات الإدراك الحسى يمكن أن تدوم أمدًا ما ، بحيث يتكرر إدراكنا الحسى لها طوال هذا الامد . ويمكن أن يتضح الموقف بأكمله فى الإدراك الحسى الشعورى ، لعملياتنا الفكرية . صحيح أن هذه العمليات يمكن أن تدوم إلا أنها يمكن أيضًا أن تنتهى فى لمحة عين ، ولذا يحسن بنا أن نسمى كل ظاهرة لا شعورية تنهج هذا النهج وتستطيع بسهولة أن تستبدل الحالة الشعورية بالحالة اللاشعورية بظاهرة يمكن أن تصبح شعورية أو بظاهرة قبلشعورية . وقد علمتنا التجربة أن كل العمليات النفسية تقريبًا ، حتى ما كان منها بالغ التعقيد يمكن أن تظل قبلشعورية أحيانًا ، وإن كانت كلها - عادة - تجاهد للوصول إلى الشعور على حد قولنا .

وهناك عمليات ومواد نفسية أخرى لا يتسنى لها هذا الانتقال اليسير إلى الحالة الشعورية بل يتعين أن تستتج ، وأن تكتشف ، وأن تترجم إلى صيغة شعورية بالطريقة التى وصفناها . ولها نحتفظ باسم «اللاشعور» بالمعنى الدقيق ، وبذا نكون قد أضفنا إلى العمليات النفسية

كيفيات ثلاثاً - فهي إما شعورية أو قبلشعورية ، أو لا شعورية . وليس الفصل بين هذه الأصناف الثلاثة من المضمونات مطلقاً ولا دائماً . فما هو قبلشعورى يمكن أن يصبح شعورياً كما رأينا بدون تدخل من جانبنا . وما هو لا شعورى يمكن أن يصبح شعورياً كما رأينا بدون تدخل من جانبنا . وما هو لا شعورى يمكن أن يصبح شعورياً بفضل جهودنا ، وإن كنا نحس أثناء هذا أن علينا أن نتغلب على مقاومات غالباً ما تكون بالغة العنف . وعندما نقوم بهذه المحاولة على شخص آخر ، فعلينا ألا ننسى أن ملء الفجوات الموجودة فى إدراكاته الحسية ، أى التأويل التركيبى الذى نقدمه إليه ، لا يعنى أننا قد حولنا المضمون اللاشعورى المعين عنده إلى شىء شعورى بالنسبة إليه . كل ما فى الأمر أن المسألة لديه تأخذ شكلين: الشكل الأول هو التأويل الشعورى الذى نقدمه إليه . والشكل الثانى هو الحالة اللاشعورية الأصلية . وتنجح جهودنا الدائبة عادة فى تحويل هذه المادة اللاشعورية إلى مادة شعورية بالنسبة إليه ، بحيث تنطبق الصيغتان إحداهما على الأخرى . ويتفاوت بحسب الحالات مقدار المجهود الذى يتعين علينا أن نبذله والذى نقيس به المقاومة ضد التحول إلى الشعور . فما يحدث مثلاً بفضل ما نبذله من جهد فى علاج تحليلى ، يمكن أن يحدث تلقائياً أيضاً . فقد يمكن لمضمون لا شعورى عادة أن ينتقل إلى ما قبل الشعور ، ثم يصبح شعورياً وهو ما يحدث ، على نطاق واسع ، فى الحالات الذهانية . وهذا يؤدى إلى القول بأن الاحتفاظ بقدر معين من المقاومات الداخلية شرط لحالة السواء . وفى حالة النوم تقل هذه المقاومات ويندفع المضمون

اللاشعورى وبذلك يتوفر شرط تكون الأحلام . وعلى الضد فقد يصبح المضمون قبلشعورى- لحين ما- بعيد المنال ، منعزلاً نتيجة للمقاومات ، كما يحدث فى حالات النسيان العابر (الهفوات) . أو قد ترد فكرة قبلشعورية إرتداداً مؤقتاً إلى الحالة اللاشعورية وهو شرط النكتة على ما يبدو ، وسنرى أن ارتداد المضمونات (أو العمليات) قبلشعورية إلى الحالة اللاشعورية على هذا النحو ، يقوم بدور كيبير فى إحداث الاضطرابات العصائية .

وقد يبدو أن نظرية الكيفيات الثلاث للظواهر النفسية كما عرضناها على هذا النحو المبسط العام . هى بالأحرى مصدر لغموض وخلط لا نهاية له ، وليست مما يعين على الوضوح . ولكن علينا ألا ننسى أنها ليست نظرية بالمعنى الدقيق ، بل تقرير أولى للوقائع التى نشاهدها ، وأنها تحاول أن تظل قريبة ما أمكن من تلك الوقائع ولا تسعى إلى تفسيرها . أما ضروب التعقيد التى تكشف عنها فهى تظهرنا على الصعوبات الخاصة التى علينا أن نتغلب عليها فى بحثنا . ويحتمل أيضاً أن تزيدنا هذه النظرية علماً إن تتبعنا علاقات الكيفيات النفسية بما أسميناه بالقطاعات أو «المنظمات» التى سلمنا بوجودها فى الجهاز النفسى ، وإن كانت هذه العلاقات بدورها لا تتصف بالبساطة .

ويرتبط فعل الشعور قبل كل شىء بالمدركات التى تتلقاها أعضاء حسنا من العالم الخارجى . فهو إذن ، من الناحية الطوبوغرافية ، ظاهرة تحدث فى اللحاء الخارجى للأنا . ولا شك أننا نتلقى أيضاً انطباعات

شعورية من داخل الجسم - هي المشاعر الوجدانية التي تفوق الإدراكات الحسية الخارجية خطراً بالنسبة إلى حياتنا النفسية . أضف إلى هذا أن أعضاء الحس نفسها ترسل المشاعر الوجدانية وآحاسيس الألم ، علاوة على الإدراكات الحسية الخاصة بها . ولكن لما كانت هذه المشاعر الوجدانية كما تسمى تمييزاً لها عن الإدراكات الحسية الشعورية ، تنبعث أيضاً عن الأعضاء المتطرفة ، ولما كنا نعتبر هذه الأعضاء امتدادات أو مشتقات للحاء ، أمكننا التمسك بالقضية السابقة . والفارق سيقصر على أن الجسم ذاته يحل محل العالم الخارجى ، فيما يتصل بالأعضاء المتطرفة للأحاسيس والمشاعر .

وأبسط تصوير للأمور هو أن نفترض أن العمليات الشعورية موجودة عند سطح الأنا وكل شيء عداها فى الأنا لا شعورى ، والواقع أن الأحوال السائدة عند الحيوان لا تخرج عن هذا . وتتعدّد الأمور عند الإنسان لأن العمليات الداخلية فى الأنا يمكنها أيضاً أن تكتسب صفة الشعور . ومرد هذا إلى عمل اللغة فهى تربط مضمونات الأنا بآثار الذاكرة المتصلة بالإدراكات البصرية ولا سيما من الداخل أيضاً ، فيمكن للعمليات الداخلية كالتصورات والعمليات الفكرية أن تصبح شعورية . ومن ثمة نحتاج إلى جهاز خاص للتمييز بين الاحتمالين ، هو ما يسمى باختبار الواقع وبذلك تبطل المعادلة : «الإدراك الحسى = الواقع (العالم الخارجى)» . والخطأ الذى تنشأ بسهولة وتحدث عادة فى الأحلام ، نطلق عليها اسم الهلوسات .

أما داخل الأنا الذى يشتمل فى المحل الأول على العمليات الفكرية ، فكيفيته هى ما قبل الشعور . ويتميز الأنا وحده بهذه الكيفية . ولكن لا يصح القول بأن ارتباط آثار الذاكرة باللغة شرط لوجود الحالة قبلشعورية، بل إن هذه - بالأحرى - لا تتوقف عليه ، وإن كان شرط الكلام دليلاً قاطعاً على أن العملية ذات طبيعة قبلشعورية . ومع ذلك فإن حالة ما قبل الشعور التى تتميز من ناحية بإمكان وصولها إلى الشعور ، ومن ناحية أخرى باتصالها بالواقى اللغوية . هى حالة خاصة لا تتحدد طبيعتها بهاتين الخاصتين وحدهما . والدليل على هذا أن هناك أقسام كبيرة من الأنا ، ومن الأنا الأعلى بوجه خاص ، لا يمكن أن ننكر عليها الطابع قبلشعورى ، ولكنها غالباً ما تظل لاشعورية ، بالمعنى الوصفى للكلمة . لا نعرف السبب فى ضرورة هذا . وسنحاول فيما بعد أن نواجه مشكلة الطبيعة الحقيقية لما قبل الشعور .

واللاشعور هو الكيفية الوحيدة المهيمنة فى الهو . فالهو واللاشعور متصلان اتصالاً وثيقاً شأن اتصال الأنا بما قبل الشعور ، بل إن الرابطة هنا أوثق . وإذا ما أعدنا النظر فى تاريخ نمو الفرد وجهازه النفسى لأمكننا أن نميز فى الهو تمييزاً هاماً ، ففي البداية كان الهو كل شىء ، وقد نما الأنا منفصلاً عن الهو تحت تأثير العالم الخارجى تأثيراً متصلاً . وفى خلال هذا النمو البطيء ، تحولت بعض مضمونات الهو إلى حالة ما قبل الشعور ، ومن ثم أصبحت فى نطاق الأنا . وظلت مضمونات

أخرى بغير تغيير فى الهو بوصفها نواته التى يصعب الوصول إليها .
ولكن الأنا الحدث الضعيف تخلى - فى خلال هذا النمو - عن بعض
المضمونات التى كان قد ضمها إلى نطاقه ، ودفع بها إلى اللاشعور ،
كما أنه اتخذ موقفًا إزاء كثير من الانطباعات الجديدة ، كان فى وسعه أن
يدخلها فى نطاقه ، فنبذها ولم تخلف أثرًا إلا فى الهو وحده . وإن
اعتبرنا الأصل فنحن نسمى هذا القسم من الهو المكبوت . ولا يهمنا
كثيرًا أننا لا نستطيع دائمًا أن نميز تمييزًا قاطعًا بين هذين النوعين فى
لهو . وهما ينطبقان تقريبًا على التمييز بين ما كان موجودًا فى الأصل وما
اكتسب خلال تطور الأنا .

والآن وقد قطعنا بالرأى فى انقسام الجهاز النفسى انقسامًا طبوغرافيًا
إلى أنا وهو ، وما يصحبه من التمييز المقابل له بين الكيفية القبلىشعورية
واللاشعورية ، وقررنا أن هذه الكيفية ليست إلا علامة مميزة وأنها ليست
جوهره ، فإننا نواجه مشكلة جديدة : ما طبيعة الحالة التى تتجلى فى الهو
من خلال كيفة اللاشعور وفى الأنا من خلال كيفة القبلىشعور وما وجه
الاختلاف بين الاثنين ؟

ولكننا لا نعرف عن هذا شيئًا ، ولا تكاد ومضة من ضياء تنير ظلام
جهلنا الدامس . فقد اقتربنا هنا من سر الظواهر النفسية الحق الذى لم
ينكشف بعد . فنحن نفترض ، جريًا على ما عودتنا عليه العلوم الطبيعية
الأخرى ، أن ثمة نوعًا من الطاقة يكون فعالًا فى الحياة النفسية . ولكننا

لا نملك من الوقائع ما يسمح لنا بأن نزيد معرفتنا بها ، عن طريق المماثلة بينها وبين صور الطاقة الأخرى . ونعتقد أننا نعرف أن الطاقة العصبية أو النفسية توجد في صورتين : إحداهما طليقة والثانية مقيدة بالأخرى ، ويعبر عن هذا بشحن المضمونات النفسية وإضافة شحنها . بل ونذهب إلى حد القول بأن إضافة الشحن تؤدي إلى نوع من تركيب للعمليات المختلفة ، تركيب يحول الطاقة الطليقة إلى طاقة مقيدة ، ولم نستطع أن نذهب إلى أبعد من هذا . ومع ذلك فنحن نؤمن تمامًا بالقول بأن التمييز بين الحالة اللاشعورية والحالة قبلشعورية قائم أيضًا في علاقات دينامية معينة - مما يفسر كيف يمكن للواحدة منها أن تتحول إلى الأخرى - سواء أحدث هذا تلقائيًا أم بمعونتنا .

غير أن ثمة حقيقة جديدة وراء كل هذه الشكوك تدين بإكتشافها لأبحاث التحليل النفسى . فقد عرفنا أن العمليات التى تقع فى اللاشعور أو فى الهو تخضع لقوانين مغايرة للقوانين السارية فى الأنا قبلشعورى . ونسمى هذه القوانين فى جملتها بالعمليات الأولية ، تمييزًا لها عن العمليات الثانوية التى تسيطر على الظواهر التى تجرى فيما قبل الشعور أو فى الأنا . وهكذا أثبتت دراسة الكيفيات النفسية - فى النهاية - أنها ليست عقيمة .

الفصل الخامس

تعليق على تفسير الأحلام

إن بحث الحالات السوية المستقرة التي تكون فيها حدود الأنا مؤمنة صامدة حيال الهو بواسطة المقاومات (الشحنات المضادة) ، وحيث لا يتميز الأنا الأعلى عن الأنا لأنهما يعملان معاً في انسجام - إن بحثاً كهذا لا يعلمنا الكثير. ولا يفيدنا إلا حالات الصراع والعصيان التي تحدث عندما تتاح لمحتوى الهو اللاشعوري فرصة للتوغل داخل الأنا والشعور ، ويكافح الأنا من جديد لحماية نفسه من هذا الغزو . في هذه الأحوال فحسب يمكننا أن نقوم بمشاهدات تدعم أو تصحح آراءنا في الشريكين [الأنا والهو] . والنوم حالة من هذا النوع ، لذلك كان النشاط النفسى الذى يتبدى أثناءه فى صورة الأحلام . أنسب موضوع للدرس . وبهذه الطريقة أيضاً نتحاشى الاتهام الذى يوجه إلينا كثيراً - بأننا نبنى الحياة النفسية السوية وفقاً للنتائج المرضية - إذ أن الحلم ظاهرة شائعة فى حياة الأسوياء ، مهما تمايزت خصائصه عن ظواهر حياتنا اليقظة . وكلنا نعرف أن الحلم قد يكون مختلطاً مستغلقاً بل وقد يكون خلواً من

المعنى ، وقد تناقض مضموناته أحياناً كل ما نعرفه عن الواقع ، وأتينا نسلك فيه سلوك المجانين ، لأننا - ونحن نحلم - نضفى صفة الواقع الموضوعى على مضمونات الحلم .

ويمكننا أن نتوصل إلى فهم الحلم (أو «تفسيره») إذا افترضنا أن ما نذكره منه عند اليقظة ليس عملية الحلم الحقيقية بل هو واجهة يستتر وراءها هذه العملية . ذلك تمييزنا بين المضمون الظاهر للحلم ، وأفكار الحلم الكامنة . ونسمى العملية التى تحول الأخيرة إلى الأولى صياغة الحلم . وتقدم لنا دراسة صياغة الحلم مثلاً ممتازاً عن النحو الذى تفرض به مواد اللاشعور فى الهو - أصيلة كانت أم مكبوتة - نفسها على الأنا ، فتصبح قبلشعورية ، وأن تعانى بسبب مقاومة الأنا تلك التغيرات التى نسميها تشويه الحلم . وما من سمة فى الحلم إلا أمكن تفسيرها على هذا النمط .

والأفضل أن نبدأ بملاحظة أن ثمة طريقين لتكوّن الحلم : فإما أن يكون لحافز غريزى مقموع عادة (رغبة لا شعورية) من القوة ما يكفى للتأثير فى الأنا أثناء النوم ، أو أن يتسنى لميل مستبعد من حياة اليقظة ، أى لسلسلة من الأفكار قبلشعورية - بكل ما يتصل بها من حوافز متصارعة - أن تزداد فى النوم قوة بانضمام عنصر لا شعورى إليها . وهكذا يصدر عدد من الأحلام عن الهو وعدد آخر من الأنا ، وتستوي الحالتان فى طريقة تكوين الأحلام فيهما ، وكذلك فى شرطهما

الدينامى . ويعطل الأنا وظائفه مؤقتًا ويرتد إلى حالة سابقة تفصح عن حقيقة نشأته من الهو . ويتم هذا دائمًا بأن يقطع [الأنا] علاقاته بالعالم الخارجى ، ويسحب شحناته من أعضاء الحس . فيمكن أن نقول بحق إن ثمة دافعاً - هو دافع النوم - ينبعث عند الميلاد ، ويهدف إلى معاودة الحياة المتقضية داخل الرحم . فالنوم عود من هذا النوع إلى رحم الأم ، ولما كان الأنا اليقظان يسيطر على الحركة فإن هذه الوظيفة تفشل فى حالة النوم ، ومن ثمة تنتفى الحاجة إلى جانب كبير من ضروب الكف المفروضة على الهو اللاشعورى . وسحب هذه الشحنات المضادة أو إنقاصها يتيح للهو قسطاً غير ضار من الحرية . والأدلة على دور الهو اللاشعورى فى تكوين الحلم كثيرة مقنعة :

(أ) فذاكرة الحلم أشمل من الذاكرة فى حالة اليقظة . فالأحلام تعيد ذكريات نسيها الحالم وليست فى متناوله عند يقظته .

(ب) يستخدم الحلم عددًا كبيرًا من الرموز اللغوية التى لا يعرف الحالم معناها فى أغلب الأحيان . بيد أننا نستطيع - بفضل خبرتنا - التحقق من معناها . ويبدو أنها صادرة عن المراحل المبكرة لتطور اللغة .

(ج) غالباً ما تستعيد ذاكرة الحلم انطباعات عن طفولة الحالم المبكرة نستطيع الجزم بأنها قد نسيت بل إنها أصبحت لا شعورية - بالكبت . وهو ما يفسر العون الذى لا غنى عنه والذى تزودنا به

الأحلام عندما نحاول أن نستنبط العهد الأول من حياة الحالم أثناء العلاج التحليلي للأمراض العصبية .

(د) علاوة على هذا ، يفصح الحلم عن مضمونات لا يمكن أن يكون مصدرها الحياة الناضجة ، ولا عهد طفولة الحالم المنسى . ويتعين علينا أن نعتبر هذه المضمونات جزءاً من التراث القديم الذى آل إلى الطفل من خبرة الأسلاف ، والذى يجلبه معه إلى العالم قبل أية خبرة معينة . ونجد ما يوارى هذه المواد الخاصة بالنشوء النوعى فى أقدم أساطير الإنسان ، وفى العادات المتبقية . فالحلم يمدنا إذن بمصدر لا يستهان به لما قبل التاريخ الإنسانى .

وما يجعل للحلم فى نظرنا قيمة لا تقدر ، إظهاره النحو الذى تغزو به المواد اللاشعورية الأنا . أى أن الأفكار قبلشعورية التى تجد فيها [المواد اللاشعورية] تعبيراً عن نفسها تعامل - فى عملية صياغة الحلم - كما لو كانت أقساماً لا شعورية من الهو . أما فى الطريقة الأخرى لتكوين الحلم فإن الأفكار قبلشعورية التى تعزرت بدافع غريزى لا شعورى تعود إلى حالة اللاشعور . وبهذه الطريقة فقط يمكننا أن نكتشف قوانين ما يحدث فى اللاشعور ، وأوجه الخلاف بينها وبين القواعد المألوفة لنا فى التفكير اليقظ . فصياغة الحلم إذن هى فى جوهرها حالة من حالات المعالجة اللاشعورية للعمليات الفكرية قبلشعورية . ويمكن التشبيه بذلك من التاريخ : يحكم الفاتحون الغزاة

بلدًا مهزومًا بحسب شريعتهم الخاصة ، لا بحسب الشريعة القائمة به سلفًا . ولكن لا شك أن نتيجة صياغة الحلم هى التوفيق بين الأضداد . فإن تنظيم الأنا لم يشل بعد تمامًا ، فيمكن تبين تأثير تنظيم الأنا الذى لم يشل بعد فى التحريف المفروض على المادة اللاشعورية ، وفيما يكون غالبًا محاولة فاشلة لإعطاء النتيجة النهائية صورة يقبلها الأنا (المعالجة الثانوية) . وفى تشبيهنا السالف ، يكون ذلك تعبيرًا عن مقاومة المغلوبين المستمرة .

وقوانين ما يحدث فى اللاشعور ، وقد تتكشف على هذا النحو ، ملفقة للنظر وكافية لتفسير معظم ما يبدو لنا غريبًا فى الحلم . هناك قبل كل شئ نزوع أخذ إلى التكثيف ، أى ميل إلى تكوين وحدات جديدة من عناصر يتعين علينا فى تفكير اليقظة أن نميز بينها . ونتيجة لهذا يمكن غالبًا أن يمثل العنصر الواحد من عناصر الحلم الظاهر عددًا من أفكار الحلم الكامنة ، كما لو كانت تلميحًا يشير إليها جميعًا ، وهو بوجه عام مختصر اختصارًا فريدًا بالقياس إلى المادة الغنية التى صدر عنها . وهناك خاصية أخرى للحلم متصلة إلى حد ما بالخاصة السابقة هى سهولة نقل الشحنات النفسية من عنصر إلى آخر (الشحن) بحيث نجد عنصرًا من عناصر الحلم الظاهر بدا وكأنه أوضح العناصر ومن ثمة أهمها بينما كان ثانويًا بالنسبة لأفكار الحلم ، وعلى العكس من ذلك فإن العناصر الجوهرية من أفكار الحلم فى الحلم الظاهر تتمثل فى تلميحات

تافهة . أضف إلى هذا أن صياغة الحلم تكتفى - عادة - بأتفه علاقة بين عنصرين ، لكى تحل أحدهما محل الآخر فى أية حالة أخرى ، ويمكن أن نتصور بسهولة كيف تعمل حيلنا التكشيف والنقل هاتان على زيادة صعوبة تفسير الحلم والكشف عن العلاقات بين الحلم الظاهر وأفكار الحلم الكامنة . ومن وجود هاتين النزعتين نحو التكشيف والنقل ، تستتج نظريتنا أن الطاقة فى الهو اللاشعورى - تتمتع بقسط أوفر من حرية الحركة ، وأن الهو يهتم فوق كل شىء بتفريغ كميات التهيج^(١) ، وتستخدم نظريتنا هاتين الخاصيتين فى تحديد سمات العمليات الأولية التى نسبناها إلى الهو .

وقد تعلمنا - من دراسة صياغة الحلم - خصائص كثيرة أخرى ، هامة بقدر ما هى ملفتة ، للعمليات التى تجرى فى اللاشعور . ولكننا لن نستطيع هنا أن نذكر منها إلا القليل . فقواعد المنطق القاطعة لا قيمة لها فى اللاشعور ، بل يمكن القول بأنه مملكة اللامنطق . فالحوافز ذات الأهداف المتعارضة توجد جنباً إلى جنب فى اللاشعور ، دون أن تقوم أدنى حاجة إلى التوفيق بينها . ولا تقوم بينها أحياناً أى تأثير متبادل ، أما إذا وجد هذا التأثير ، فقد لا يتخذ أى قرار بل يأتى توفيق سخيى ، لأنه يتضمن عناصر متعارضة . وبالمثل لا تظل الأضداد منفصلة الواحد

(١) مثال هذه قصة ضابط الصف الذى يتقبل - صامتاً - تقريباً عنيفاً من رئيسه ولكن غضبه يجد له منفلاً فى أول نفر يرى يقابله صدفة .

منها عن الآخر، بل تعالج كما لو كانت شيئاً واحداً بحيث يمكن لاي عنصر في الحلم الظاهر أن يدل على نقيضه تماماً . وقد تنبه بعض اللغويين إلى أن هذا يصدق بالمثل على أقدم اللغات ، وأن الأضداد مثل : قوى وضعيف، منير ومظلم ، مرتفع ومنخفض ، كان يعبر عنها في الأصل بمصدر واحد، إلى أن استخدم اشتقاقان مختلفان للكلمة الأصلية - للتمييز بين معنيين ، ويبدو أن آثار هذا المعنى البدائي المزدوج بقيت حتى في اللغات التي وصلت إلى مرتبة عليا في التطور كاللغة اللاتينية ، كما نجد في استخدام altus ومعناها (مرتفع ومنخفض) acer (مقدس ودنس) وغيرهما.

ونظراً لتعدد العلاقات وغموضها بين الحلم الظاهر والمضمونات الكامنة خلفه ، يحق لنا أن نتساءل - أي الطرق يسلكه المرء في المحل الأول للتأدي من إحداها إلى الأخرى ؟ وهل نعتمد على التخمينات الموفقة والتي قد تعززها ترجمة الرموز التي ترد في الحلم الظاهر ؟ ويمكن أن نجيب على هذا بأن المشكلة يمكن أن تحل حلاً مرضياً في الغالبية العظمى من الحالات ، ولكن هذا لا يتم إلا بمساعدة المستدعيات التي يزودنا بها الحالم نفسه ، من عناصر المضمون الظاهر . وكل طريقة أخرى تعسفية ولا تؤدي إلى اليقين . ولكن مستدعيات الحالم توضح الحلقات الوسطى التي نتمكن بمساعدتها من ملء الفجوات بين المضمون الظاهر والأفكار الكامنة ، وأن نبعث بواسطتها المضمون الكامن للحلم وأن «نفسره» . فلا عجب أن تخفق عملية التفسير هذه التي تسير في عكس اتجاه عملية صياغة الحلم في الوصول إلى اليقين التام .

ويبقى علينا أن نقدم تفسيراً دينامياً لهذه الظاهرة - لماذا يكلف الأنا
النائم نفسه بمهمة صياغة الحلم ؟ ومن اليسير لحسن الحظ أن نجد هذا
التفسير . فإن كل حلم فى دور التكوين يستعين باللاشعور فى مطالبة
الأنا بإشباع حافز غريزى إن كان ينبعث من الهوى ، أو بحل الصراع ، أو
إزالة شك ، أو إتخاذ قرار ، إن كان ينبعث عن بقايا النشاط القبلى شعورى
فى حياة اليقظة . على أن الأنا النائم يصدر عن الرغبة فى الاحتفاظ
بالنوم ، فيحس بهذه المطالبة باعتبارها إزعاجاً ويسعى للتخلص من هذا
الإزعاج . ويحقق الأنا هذا بما يشبه الإذعان : إذ تتحقق الرغبة فى هذه
الأحوال تحقيقاً لا ضرر فيه . وبدا يتخلص من المطالبة . وهذا الإبدال
للمطالبة عن طريق تحقيق الرغبة يظل العمل الجوهري لصياغة الحلم .
وقد يحسن بنا أن نصور هذا بثلاث أمثلة بسيطة : حلم جوع ، وحلم
راحة ، وحلم رغبة جنسية ، فمثلاً عندما تستبد بحالم - أثناء نومه -
حاجة إلى الطعام ، فإنه يحلم بوجبة شهية ويمضى فى نومه . وقد كان
له الخيار بالطبع بين أن يستيقظ ليأكل ، أو أن يواصل نومه . ولكنه أثر
الأمر الأخير وأشبع الجوع عن طريق الحلم ، إلى حين على الأقل . فإن
ألح عليه الجوع فلا بد أن يستيقظ . والحالة الأخرى : يجب على النائم
أن يستيقظ ليصل فى الوقت المحدد إلى عمله فى العيادة . ولكنه يمضى
فى نومه ، ويحلم أنه فى العيادة ، ولكن بوصفه مريضاً لا حاجة به إلى
مغادرة الفراش . والمثال الأخير : تنبعث رغبة أثناء الليل فى الاستمتاع
بموضوع جنسى محرم ، بزوجة صديق . فيحلم النائم بالاتصال

الجنسى ، لكنه لا يتصل بهذا الشخص ذاته ، بل بآخر يحمل نفس الاسم ، ولا يشعر نحوه - فى الواقع - بميل ما ؛ أو قد تبدى معارضته للرغبة فى أن تظل خليلته فى الحلم مجهولة الاسم تمامًا .

وليست كل الحالات طبعًا بهذه البساطة . ففي تلك الأحلام التى تنبعث عن بواقى اليوم السابق التى لم تحل ، والتى لم يعترها أثناء النوم إلا تعزيز من اللاشعور ، فى هذه الأحلام لا يكون من اليسير غالبًا أن نكتشف القوة اللاشعورية وتحقيق الرغبة المتصلة بها ؛ ولكن لنا أن نفترض أن هذا التحقيق موجود دائمًا . والقول بأن الأحلام تحقيق لرغبة قد يؤدي إلى عدم التصديق إن تذكرنا ذلك العدد الكبير من الأحلام التى لها مضمون مؤلم مباشر وتدعو إلى اليقظة فى قلق ، فضلًا عن الأحلام العديدة الخالية من كل نبرة وجدانية واضحة . ولكن الاعتراض القائم على أحلام القلق لا يصمد للتحليل . فلا يجب أن ننسى أن الحلم هو دائمًا نتيجة صراع ، وأنه نوع من البناء التوفيقي . فما هو إشباع بالنسبة للهو اللاشعورى قد يكون لنفس السبب موضوعًا للقلق بالنسبة للأنا .

وفى أثناء صياغة الحلم ، تكون الغلبة حينًا للاشعور ، وحينًا للأنا . وأحلام القلق هى فى الأغلب تلك الأحلام التى لم يعتر مضمونها إلا تحريف ضئيل . فإذا كان مطلب اللاشعور من القوة بحيث لا يستطيع الأنا النائم أن يدفعه عن نفسه بالوسائل التى يملكها ، فإنه ينبذ الرغبة فى النوم ، ويعود إلى حياة اليقظة . وتسمح لنا مشاهداتنا كلها أن نقرر

أن الحلم فى كل حالة محاولة لإزالة منغصات النوم بتحقيق رغبة . فهو من ثمة حارس النوم . ويتفاوت حظ هذه المحاولة من النجاح ؛ وقد تخفق - وفى هذه الحالة يستيقظ النائم ، ويبدو أن ما يوقظه هو الحلم ذاته . شبيه بهذا ، ذلك الحارس الليلى الشجاع ، الذى وكل إليه أن يرعى نوم سكان القرية الصغيرة ، والذى لا يجد أحياناً مناصباً من أن يطلق النذير ، ويوقظ القرويين النائمين .

ونختتم هذه الملاحظات بعبارة تبرر ذلك الوقت الطويل الذى أنفقناه فى مشكلة تفسير الأحلام . فقد بينت التجربة أن الحيل اللاشعورية التى عرفناها عن طريق دراسة صياغة الحلم ، والثى وضحت لنا تكوين الحلم ، تساعدنا أيضاً فى فهم تكوين الأعراض المرضية الغامضة التى تسترعى انتباهنا فى الأمراض العصابية والذهانية . إن مثل هذا التطابق لا يمكن إلا أن يبعث فىنا آمالاً عراضاً .

القسم الثاني
المهام العملية

الفصل السادس

فن التحليل النفسى

إذن فالحلم ذهان ، بكل ما يصاحبه من سخافات وهذيان وأوهام .
والحق أنه ذهان قصير الأمد لا ضرر منه ، بل إنه يؤدي وظيفة نافعة ،
ويتم بموافقة الحالم ويتهى بفعل إرادى يصدر عنه . ومع ذلك فهو
ذهان ، وقد تعلمنا منه أن تعبيرات الحياة النفسية مهما كانت على هذا
النحو من العمق ، يمكن أن تزول ، وأن تخلق السبيل إلى الوظيفة
السوية : فهل من الجرأة ، والحالة هذه ، أن نأمل فى إمكان إخضاع
أمراض النفس التلقائية المخيفة لسيطرتنا ، والعمل على شفائها ؟ إن
تحت يدنا من المعارف ما يعدنا للقيام بهذه المهمة . كان من مسلماتنا
أن مهمة الأنا هى إشباع مطالب القوى الثلاث التى يخضع لها ، الواقع
والهو والأنا الأعلى- وبذلك يستبقى نظامه الذاتى ، ويحافظ على
استقلاله الذاتى . ولا يمكن أن يكون الشرط الضرورى للحالات
المرضية التى ذكرناها إلا ضعف الأنا ضعفاً نسبياً أو مطلقاً يمنعه عن
القيام بمهامه . ولعل أخطر واجبات الأنا هو مناهضة المطالب الغريزية

للهو ، ومن أجل ذلك ، يضطر إلى إنفاق مقادير عظيمة من الطاقة في الشحنات المضادة . بيد أن مطالب الأنا الأعلى قد تكون أيضاً من القوة والجبروت بحيث تكاد تشل الأنا عن مهامه الأخرى . ولنا أن نفترض أن الهو والأنا الأعلى - في الصراعات الاقتصادية التي تنشأ آنذاك - يتحدان غالباً ضد الأنا المثقل بالأعباء والذي يتشبث بالواقع لكي يحتفظ بحال السواء . ولكن عندما يكون الهو والأنا الأعلى بالغي القوة ، فإنهما قد ينجحان في رعدة تنظيم الأنا وتغييره بحيث تضطرب علاقته الذاتية بالواقع ، بل وتنقطع . وقد رأينا هذا في الحلم : فعندما ينفصل الأنا عن واقع العالم الخارجى ، فإنه ينزلق إلى الذهان ، بتأثير العالم الداخلى .

وبناء على هذه الاعتبارات ، نضع خطتنا في العلاج . فقد ضعف الأنا نتيجة للصراع الداخلى ، فعلى أن نتقدم لمساعدته . ويشبه الموقف حرباً أهلية لا يمكن أن يحسم مصيرها إلا عون حليف من الخارج . ويجب على الطبيب المحلل وعلى الأنا الضعيف للمريض - إذ يشتان أقدامهما في العالم الخارجى الواقعى - أن يتحدا ضد الأعداء وهم : المطالب الغريزية للهو ، والمطالب الأخلاقية للأنا الأعلى . ونحن نعقد ميثاقاً بيننا . فيتعهد الأنا السقيم بأن يخلص لنا القول إخلاصاً تاماً - أعنى بأن يضع تحت تصرفنا كل المواد التى يزوده بها إدراكه الذاتى . ونحن نؤكد له أننا سنتوخى الأمانة التامة ، ونضع فى خدمته تجاربنا

لتأويل المواد التى أثر فيها اللاشعور ، وستعوض معارفنا جهله ، ونهىء
للأنا لديه السيطرة ثانية على المناطق التى هجرها فى حياته النفسية .
وعلى هذا الميثاق يقوم الموقف التحليلى .

ولا نكاد نخطو هذه الخطوة حتى يصادفنا أول إخفاق وأول دعوة
إلى التواضع . فلكى يصبح الأنا لدى المريض حليفاً نافعاً فى مهمتنا
المشتركة ، يجب عليه - مهما كان ضغط القوات المعادية عليه عظيماً -
أن يكون قد احتفظ بقدر من التماسك ومن فهم مقتضيات الواقع . ولكن
، يجب ألا نتوقع هذا من الأنا لدى الذهانى ، فهو لا يستطيع أن ينفذ
ميثاقاً كهذا ، بل ولا يكاد يستطيع أن يبرمه أصلاً . ولن يلبث أن ينبذنا
نحن وما نقدمه له من عون متصل بالأقسام المنتبذة من العالم الخارجى
التى لم تعد تعني بالنسبة إليه شيئاً . وهكذا نتبين أنه لابد لنا من
العدول عن تطبيق منهجنا العلاجى على الذهانين ، وقد يكون العدول
نهائياً وقد يكون مؤقتاً فحسب ، إلى أن نكتشف منهجاً آخر أكثر ملاءمة
لتحقيق هذه الغاية .

ولكن هناك فريقاً آخر من المرضى النفسيين الذين يشبهون الذهانين
فى الظاهر شبيهاً وثيقاً ، نعى العدد الذى لا يحصى ممن يعانون
الأمراض العصابية الخطيرة . ولابد أن تكون شروط المرض والحيل
المرضية لديهم واحدة أو على الأقل متشابهة كل التشابه . إلا أن الأنا
لديهم قد أثبت قدرته على المقاومة وكان أقل تحللاً . ويستطيع الكثيرون

منهم أن يحتفظوا بمراكزهم فى الحياة الواقعية بالرغم من متاعبهم وما ينتج عنها من اضطرابات . ويستطيع هؤلاء العصاةيون إبداء استعدادهم لقبول معونتنا . فلنقصر اهتمامنا عليهم ، ونر إلى أى حد وبأى الوسائل نستطيع أن «نشفهم» .

وهكذا فنحن نعقد ميثاقنا مع العصاةيين : الصراحة التامة مقابل الأمانة المطلقة . وقد يبدو دورنا هذا شبيهاً بدور من يتقبل الاعتراف ، على أن هناك فرقاً كبيراً فإننا لا نكتفى بأن نسمع من مريضنا ما يعرفه وما يخفيه عن الآخرين ، بل نريد أيضاً أن نكشف عما لا يعرفه هو . وإذا نضع هذه الغاية نصب أعيننا ، نعطيه تعريفاً مفصلاً لما نقصده بالصراحة . فنفرض عليه القاعدة الأساسية للتحليل التى يجب عليه بعد ذلك أن يلتزمها فى علاقته بنا : ليس عليه فقط أن يخبرنا بما يستطيع أن يقوله عن قصد وإرادة ، أى بما يسرى عنه وكأنه الاعتراف ، بل عليه أيضاً أن يمدنا بكل ما يشاهده فى نفسه ، وكل ما يجول بخلده ، حتى وإن كان مما ينفر من قوله ، وحتى وإن بدا تافهاً أو عديم المعنى بالفعل . فإذا استطاع بعد هذه الوصايا أن يستبعد نقده الذاتى ، فسيزودنا بمجموعة من المواد والخواطر والأفكار والذكريات ، مما يقع تحت تأثير اللاشعور ، ويكون غالباً من مشتقاته المباشرة - 'مما يسمح لنا بتخمين طبيعة مواد اللاشعورية المكبوتة ، وتزويد المريض بمعلومات تزيد من معرفته باللاشعور لديه .

وينبغي ألا نظن أن دور الأنا لديه قاصر على أن يمدنا مطيعاً مستسلماً بالمواد المطلوبة ، وأن يتقبل ترجمتنا لها عن طيب خاطر . وما يحدث في الواقع لدى أمور جد مغايرة ، بعضها كنا نتوقعه ، والبعض الآخر حري بأن يفاجئنا . وأغربها أن المريض لا يكتفى بأن ينظر إلى المحلل على ضوء الواقع بوصفه معيناً وناصحاً ، يكافأ على الجهود التي يبذلها ، ويقنع هو نفسه بدور الدليل في الجبال أثناء تسلق وعمر ، بل يرى المريض في محله بعثاً أو نسخاً لشخص هام في طفولته أو ماضيه ، ومن ثمة يحول إليه مشاعر ومواقف سلوكية كانت تنصب بلا ريب على ذلك المثال . وسرعان ما يتضح أن عامل التحويل هذا عامل ذو مغزى لا نحلم به : فهو من ناحية أداة معونة لا تضارع ، وهو من ناحية ثانية مصدر لأخطار فادحة . فهذا التحويل مزدوج الميل فهو يتضمن اتجاهات إيجابية ودية ، وأخرى سلبية عدائية تجاه المحلل ، الذي يحله المريض دائماً محل أحد والديه : أبيه أو أمه . وما دام التحويل إيجابياً فهو يقدم لنا أعظم العون . فهو يغير الموقف التحليلي كله ، وي طرح جانباً رغبة المريض العقلية في الشفاء والتخلص من متاعبه ، وتقوم مقامها الرغبة في إرضاء المحلل والظفر بتأييده ومحبته ، بحيث تصبح القوة الدافعة الحقيقية لمشاركة المريض في العملية التحليلية ، فيقوى الأنا الضعيف ، ويتأثر هذه الرغبة يحقق المريض أموراً كانت محالة بدونها ، فتختفى أعراضه ويبدو أنه قد شفى ، وما كل ذلك إلا حياً للمحلل . ويجب على المحلل أن يعترف لنفسه بتواضع أنه قد أخذ

على عاتقه مهمة شاقة دون أن يخطر بباله ما سيقع تحت تصرفه من قوى
جبارة .

وبالإضافة إلى هذا فإن علاقة التحويل تحمل معها ميزتين أخريين .
فعندما يضع المريض المحلل مكان أبيه أو أمه ، فإنه يتيح له السيطرة
التي يمتلكها الأنا الأعلى عنده على الأنا من حيث إن أبوه - كما نعلم
- كانا أصل الأنا الأعلى عنده ، فيتاح للأنا الأعلى الجديد - آنذاك - أن
يقوم بما يشبه التربية اللاحقة للعصابي ، فيستطيع أن يصحح الأخطاء التي
تعد التربية الأبوية مسئولة عنها . ولكن يجب أن نحذر ههنا من أن يساء
استخدام هذا النفوذ الجديد . فمهما استبد بالمحلل الإغراء بأن يصبح
معلمًا ونموذجًا ومثالًا لغيره من الناس ، بأن يصوغهم على صورته ،
فعليه ألا ينسى أن مهمته غير ذلك في العلاقة التحليلية ، بل لن يكون
مخلصًا في مهمته إن ترك ميله يسيطر عليه . ولن يعدو إذن أن يكرر أحد
أخطاء الوالدين عندما كانا يقضيان على استقلال طفلهما بما لهما من
تأثير ، وأن يُحل محل الاعتماد المبكر باعتمادًا جديدًا . ويجب على
المحلل أن يحترم المريض في كل المحاولات التي يبذلها لتحسين حالته
وإنماء فرديته . ولا يكون مقدار النفوذ الذي يمارسه ممارسة مشروعة إلا
بقدر ما أصاب المريض من الكف في نموه الانفعال . فهناك عصايبون
كثيرون ظلوا على النمط الطفلي بحيث لا بد من أن يعاملوا كالأطفال أثناء
التحليل .

وهناك ميزة أخرى للتحويل ، هي أن المريض يبرز لنا بوضوح
مجسم جزءًا هامًا من تاريخ حياته ، لم يكن ليستطيع - لولا التحويل -

إلا أن يعرضه لنا عرضاً ناقصاً . ويبدو أنه يحيا هذا الجزء أمامنا بدلا من أن يرويهِ لنا .

ولنتقل الآن إلى الوجه الآخر للموضوع . لما كان التحويل يعيد علاقة المريض بوالديه ، فإنه يتخذ أيضاً طابعها المزدوج . وغنى عن البيان أن الإتجاه الموجب بين المحلل يتغير ذات يوم إلى اتجاه سلبي عدائى . ويعد هذا بالمثل تكراراً للماضى . فطاعته لأبيه (إذا كان المحلل يمثله) ، وسعيه إلى نيل حظوته ، يرجعان فى الأصل إلى رغبة شهوية موضوعها الوالد . وفى يوم ما ، تقحم هذه الرغبة نفسها فى التحويل أيضاً وتطالب بالإشباع . ولكن هذه الرغبة تقابل بالحرمان فى الموقف التحليلى . فلا يمكن أن تقوم أية علاقات جنسية واقعية بين المرضى والمحللين ؛ حتى أساليب الإشباع الأكثر رقة ، كأمارات الإيثار والألفة وما إلى ذلك ، يجب ألا يبذلها المحلل إلا بحساب . ولا يلبث شعور بالمذلة أن يتخذ ذريعة لإنقلاب موقف المريض (من الود إلى العداء) . ومن المحتمل أن يكون قد حدث مثل ذلك فى طفولة المريض .

وللمرء أن يرتاب فى أن النجاح العلاجى الذى يحدث بفضل التحويل الإيجابى إنما هو من قبيل الإيحاء . فعندما يغلب التحويل السلبي فإنه يذرو هذا النجاح كما تذرو الرياح الهشيم . ويروونا أن نرى أن كل ما بذلناه حتى الآن من جهد وعناء قد ذهب أدراج الرياح . حتى ما اعتبرناه كسباً ثقافياً دائماً للمريض ، أعنى فهمه للتحليل النفسى ووثوقه

بنفسه ، حتى هذا يمحي فجأة . ويسلك المريض كالطفل الذى لا قدرة له على الحكم ، بل يصدق - تصديقاً أعمى - كل من يحبه ولا أحد سواه . وواضح أن خطر حالة التحويل هذه هو أن يسيء المريض فهم طبيعتها ، وأن يتوهمها خبرات واقعية جديدة بدلاً من أن يراها انعكاسات للماضى . وعندما يتبين (أو تتبين) الرغبة الشهوانية القوية التى تختفى وراء التحويل الإيجابى ، فإنه يظن أنه انغمس فى حب عنيف ، وعندما ينقلب التحويل ، فإنه يشعر أنه مهان منبوذ ، فيكره المحلل ويعتبره عدواً ، ويتهياً لترك التحليل . وفى هاتين الحالتين المتطرفتين جميعاً ، ينسى الميثاق الذى ارتبط به عند بدء العلاج ، ويعجز عن المضى فى العمل المشترك . أما واجب المحلل ، فهو أن يتشغل المريض كل مرة من الوهم الذى يهدده باستمرار ، وألاً ينفك يبصره بأن ما يتوهمه وقائع حية جديدة ليس إلا انعكاساً للماضى . وعلى المحلل أن يعمل على أن لا يبلغ الحب أو العداء أحدهما الأقصى حتى يحول بين مريضه وبين التردى فى حالة لا سبيل إلى إنتشاله منها . والوسيلة إلى ذلك أن يحذر المريض ، فى الوقت المناسب ، من هذه الاحتمالات قبل وقوعها وألا يفوته ظهور العلامات الأولى لها . واللباقة فى معالجة التحويل تؤتى دائماً أطيب الثمار . وعندما ننجح - كما يحدث عادة - فى إقناع المريض بالطبيعة الحقيقية لظاهرة التحويل . نكون قد غنمنا سلاحاً قوياً من قبضة مقاومته، ونكون قد حولنا الأخطار إلى مكاسب . لأن المريض

لا ينسى أبداً ما خبره فى صور التحويل الذى تفوق قدرته فى الإقناع كل ما يمكن للمريض أن يكتسبه بالطرق الأخرى .

وأبعد الأمور عما نحب أن يسلك المريض خارج التحويل بدلاً من أن يتذكر . والمسلك الأمثل بالنسبة لأهدافنا هو أن يسلك المريض بمنتهى السواء خارج دائرة العلاج ، وألا يعبر عن استجاباته الشاذة إلا فى التحويل .

ويبدأ منهجنا فى تقوية الأنا الضعيف بتوسيع نطاق معرفته بنفسه . ونحن نعرف أن هذا ليس كل شيء ، بل هو الخطوة الأولى . فققدان مثل هذه المعرفة يعنى بالنسبة للأنا فقدان القوة والنفوذ ، وهو أول علامة ملموسة على أن الأنا قد قيدته وعاقته مطالب الهو والأنا الأعلى . والجزء الأول من المعرفة التى علينا أن نقدمها هو العمل الفكرى من جانبنا ، وتشجيع المريض على التعاون معنا فيه . وإنا ندرك أن هذا المجهود الأول يجب أن يعد لمهمة أخرى أكثر صعوبة . ولن يفوتنا الجانب الدينامى لهذه المشكلة حتى فى أثناء عملنا التمهيدى . فنحن نحصل على موادنا من مصادر متعددة : ما تزودنا به معلومات المريض ومستدعياته الطليقة ، ومما يديه لنا فى حالات تحويله ، ومما نستخلصه من تأويل أحلامه ، ومما تكشف عنه فلتاته . وكل هذه المواد تعيننا على استنتاج ما حدث له وما نساها ، وما يحدث حالياً له دون أن يفهمه ، ولكننا لا يفوتنا أبداً - فى كل هذا - أن نميز تمييزاً حاسماً بين ما نعرفه نحن وما

يعرفه هو . فنحن نتحاشى أن نقول له فجأة ما نكون غالباً قد اكتشفناه منذ البداية ، أو نتجنب أن نخبره بكل ما نظن أننا اكتشفناه . ونقدر بعناية الوقت الذى يحسن بنا فيه أن ندلى إليه باستنتاجاتنا ، وننتظر حتى تظهر لنا لحظة مناسبة . وتحديدًا أن ليس بالأمر الهين دائماً . فنحن نتجنب عادةً أن ندلى إليه باستنتاج أو تفسير حتى يكون قد قارب الوصول إليه بحيث لا يبقى أمامه إلا خطوة واحدة ، هى فى الواقع التركيب النهائى . وإذا نحن سلكنا طريقاً آخر ، فانهلنا عليه بتفسيراتنا قبل أن يكون معداً لها ، فإما ألا يكون لقولنا أية نتيجة ، وإما أن تثير انفجاراً عنيفاً فى المقاومة يتعذر معها استمرارنا فى العمل بعد ذلك ، بل وقد يهدد بإيقاف العمل تماماً . أما عندما نكون قد أعددنا كل شيء كما يجب ، فإنه يحدث غالباً أن يؤيد المريض مباشرةً استدلالنا ، ويستعيد بنفسه الحادث الداخلى أو الخارجى الذى كان قد نسيه . وبقدر ما يكون فى استدلالنا من دقة فى مطابقة تفاصيل ما نسيه المريض ، تكون سهولة تأييده له . وفى هذه الحالة لا يعود هناك فرق بين معرفتنا ومعرفته .

وإذا ما ذكرنا المقاومة ذكرنا الجزء الثانى من مهمتنا الذى يفوق الجزء الأول أهمية . فقد سبق أن ذكرنا أن الأنا يحمى ذاته من توغل العناصر غير المرغوب فيها ، والواردة من الهو المكبوت اللاشعورى ، بواسطة الشحنات المضادة ، التى يجب أن تبقى سليمة حتى يتسنى للأنا أن يؤدي وظائفه بطريقة سوية . وكلما اشتد وقع الضغط على الأنا اشتد

تشبّه بتلك الشحنات المضادة تشبّهًا مذعورًا ، حتى ينقذ ما بقي له من كل غزو جديد . ولكن هذا الإتجاه الدفاعي لا ينسجم إطلاقًا وأهداف علاجنا . فنحن نرغب - على الضد - في أن يقدم الأنا - تحدوه ثقته بمعونتنا - على اتخاذ موقف الهجوم حتي يستعيد ما فقده . وهنا نشعر بقوة هذه الشحنات المضادة التي تتخذ صورة المقاومات ضد عملنا . فالأنا يتراجع أمام مثل هذه المحاولات التي تبدو خطيرة ومنذرة بالألم ، ويجب أن يُستحث دومًا على المضى ، وأن يخفّف عنه ، إذا ما أردنا ألا يخذلنا . وقد سمينا هذه المقاومة التي تظل طوال العلاج ، والتي تتجدد في كل مرحلة جديدة من العمل ، بمقاومة الكبت ، وإن لم تكن هذه التسمية صحيحة كل الصحة . وسنرى أن هذه المقاومة ليست هي المقاومة الوحيدة التي تقابلنا . ومن الشائق أن توريع الأدوار المختلفة في هذا الموقف يكون مقلوبًا ، لأن الأنا يناضل ضد ندائنا ، في حين أن اللاشعور ، وهو خصمنا عادةً ، يخف لمعونتنا ، لأن به دافعًا طبيعيًا إلى الصعود ، وقصارى ما يطمح إليه أن يندفع عبر الحدود التي تعوقه إلى الأنا وإلى الشعور . وحين نربح قضيتنا وننجح في إقناع الأنا بأن يتغلب على مقاوماته ، فإن النضال ، الذى ينشأ يستمر تحت إشرافنا ويعوننا . وسيان أن يسفر هذا النضال عن قبول الأنا بعد فحص جديد مطلبًا غريزيًا سبق له أن رفضه ، أو عن رفضه إياه رفضًا نهائيًا . ففي كلتا الحالتين . تخلصنا من خطر داهم ، واتسع مجال الأنا ، ولم تعد به حاجة إلى تبديد مقدار كبير من الطاقة .

وفى العملية التحليلية يأخذ التغلب على المقاومات أكثر الوقت وأقصى العناء . ولكن هذا الجهد يؤتى ثماره ، ويحدث فى الأنا تعديلاً ملائماً يحتفظ به ويدوم طوال حياة المريض مهما كان مصير التحويل . ونكون فى الوقت نفسه قد عملنا على إزالة التعديل الذى كان اللاشعور قد أحدثه فى الأنا ، لأنه كلما استطعنا أن نكشف عن مشتقاته فى الأنا نكون قد وجهنا الإنتباه إلى أصلها غير المشروع ، وحشنا الأنا على التخلص منها . وتذكر أن أحد الشروط الأساسية لقيامنا بالعلاج يتضمن أن لا تكون هذه التعديلات التى طرأت على الأنا بتدخل عناصر لاشعورية قد تجاوزت حداً معيناً .

وكلما تقدم عملنا ، وعمقت معرفتنا بالحياة النفسية عند العصابى ، إزداد وضوح عاملين جديدين يستدعيان اهتمامنا ، ويتطلبان أدق الإنتباه بوصفهما مصادر للمقاومة . فكلاهما يجهله المريض تماماً ، ولا يمكن أن نفكر فى أيهما عندما نعقد ميثاقنا ؛ بل إنهما لا ينبعثان عن الأنا عند المريض . ويمكن أن ندرجهما كليهما تحت اسم الحاجة إلى المرض أو إلى العذاب ، ولكن مصادرهما مختلفة ، وإن كانا ذا طبيعة متشابهة . وأول هذين العاملين هو وجدان الإثم ، أو الشعور بالإثم كما يسميه البعض متجاهلين أن المريض لا يستشعره ولا يعيه . وواضح أنه مستمد من المقاومة التى يبذلها الأنا الأعلى بعد أن أصبح صارماً قاسياً بالذات . فيجب ألا يشفى المرء ، وأن يظل سقيماً ، لأنه لا يستحق مصيراً

أفضل . وإلا تعوق هذه المقاومة منه - عادةً - عملنا العقلي ، ولكنها تجعله عقيمًا . بل كثيرًا ما تسمح بأن تتوقف صورة من الآلام العصابية ، ولكنها سرعان ما تستبدل بها صورة أخرى قد تكون مرضًا عضويًا . ويفسر لنا الشعور بالإثم أيضًا شفاء الأعصاب الخطيرة أو تحسينها الذي نشاهده أحيانًا على أثر ما يحل بالمريض من نكبات واقعية : فالمهم هو أن يشقى المرء ولا عبرة بالوسيلة إلى ذلك . ومما يلفت النظر ، الإذعان الصامت الذي يقابل به أمثال هؤلاء الأشخاص مصيرهم الصعب ، ولكنه أمر ينم عن الكثير . ويجب علينا عند معالجة هذه المقاومة أن نقتصر على الوصول بها إلى الشعور ، وأن نقضى قضاءً بطيئًا على الأنا الأعلى العدائي .

على أننا لا نستطيع بهذه السهولة أن نبرهن على وجود مقاومة أخرى نلفى أنفسنا عاجزين إزاءها . فهناك بعض العصائبيين الذين تشير استجاباتهم إلى أن غريزة حفظ الذات فيهم قد انقلبت إلى ضدها ، ويبدو أنهم لا يعنيه إلا أن يلحقوا بأنفسهم الأذى والخراب . وربما انتمى إلى هذه الطائفة أولئك الذين يقدمون في النهاية على الانتحار بالفعل . ونحن نفترض أنه قد حدث عند هؤلاء تغيرات غريزية بعيدة المدى ، أدت إلى إطلاق مقادير هائلة من الحافز التدميري نحو الداخل . ولا يستطيع أمثال أولئك المرضى أن يتحملوا الشفاء عن طمعة علاجنا ، فهم يعرقلونه بكل الوسائل . ولكن علينا أن نعترف أننا لم نتوصل إلى تفهم هذه الحالات تفهمًا كاملاً .

ولنلق نظرة ثانية على الموقف الذى وصلنا إليه فى محاولتنا بذل
العون للآنا العصائى للمريض . فهذا الآنا لم يعد قادراً على أداء
الواجبات التى يفرضها عليه العالم الخارجى بما فيه المجتمع الإنسانى .
وقد غابت عنه خبراته الماضية جميعاً ، كما فقد جزءاً كبيراً من ذخيرة
ذكرياته . وكف نشاطه بفعل التحريمات الصارمة التى يفرضها الآنا
الأعلى ، وتبددت طاقته فى محاولات فاشلة لصدد مطالب الهو . كما
اختل تنظيمه نتيجة الهجمات المستمرة من الهو ، وانقسم على ذاته من
الداخل ، وعجز عن إنجار أى تركيب صحيح ، ومزقته الميول
المتعارضة ، والصراعات التى لم تسوّ ، والشكوك التى لم تحل . وفى
البداية ندعو ذلك الآنا الضعيف للمريض إلى مشاركتنا فى عمل عقلى
خالص هو التفسير ، وذلك لملء الفجوات فى ذخائره النفسية ملأً مؤقتاً
، ثم نحول إلينا سلطة الآنا الأعلى ؛ ونشجع الآنا على الكفاح ضد كل
مطلب للهو ، وعلى القضاء على المقاومات التى تظهر عند ذلك . وفى
الوقت نفسه ، نعيد النظام إلى الآنا ، وذلك بالكشف عن المضمونات
والنزعات التى اقتحمت طريقها إليه من اللاشعور ، ونعرضها للنقد بردها
إلى أصلها . ونستطيع أن نسدى العون إلى المريض بأن نقوم بوظائف
شتى ، بوصفنا سلطة ، وبديلاً للوالدين ومعلمًا ومربيًا . وأفضل ما
يمكن أن نتعلمه من أجله ، أثناء قيامنا بدور المحلل ، وأن نرد
المضمونات التى أصبحت لا شعورية مكبوتة إلى حال ما قبل الشعور

ومن ثم نعيدها إلى حوزة الأنا . أما من ناحية المريض ، فثمة عوامل عقلية تعمل لمصالحنا : كحاجته إلى البرء الناشئة عن آلامه ، وما نثير فيه من اهتمام عقلي بنظريات التحليل النفسى وكشوفه ، وأهم من هذا كله التحويل الإيجابى نحونا . ومن جهة أخرى فثمة عوامل أخرى تعمل ضدنا منها التحويل السلبي ، ومقاومة الكبت التى يبسديها الأنا ، أعنى الألم الناشئ عن العمل المضنى المفروض عليه ، ووجدان الإثم الناجم عن علاقته بالأنا الأعلى ، والحاجة إلى السقم الناجمة عن تغيرات عميقة فى توزيع طاقته الغريزية . وبناءً على هذين العاملين الأخيرين نستطيع أن نحدد ما إذا كانت حالته بسيطة أم خطيرة .

وبالإضافة إلى العوامل السابقة ، هناك عدد من العوامل الأخرى الجديرة بالذكر ، وبعضها يعين على تقدم العلاج والبعض الآخر يعمل على عرقلته . فمن العوامل الضارة نمط من القصور الذاتى النفسى ، وجمود الليبيدو الذى يرفض التخلنى عما يتشبث به ؛ وتؤدى قدرة المريض الذاتية على التسامى بغرائزه دوراً هاماً ، ونظيرها فى ذلك قدرته على الإرتفاع عن مستوى الحياة الغريزية الفجة ، وكذلك قدرته العقلية النسبية . فلن يخيب أملنا بل لنا أن نرضى بالنتيجة الآتية : وهى أن المصير النهائى للنضال الذى نخوضه تتوقف على علاقات كمية ، أى على النسبة بين كمية الطاقة التى نستطيع أن نعبثها فى المريض لمصالحنا ، وكمية طاقة القوى التى تعمل ضدنا . ومرة أخرى يكون الله ههنا مع

الفرقة الأقوى . ومع أننا لا نبلغ دائماً النصر ، إلا أننا نستطيع عادة أن نعرف على الأقل السبب فى هزيمتنا . ومن المحتمل أن أولئك الذين لم يتتبعوا أبحاثنا إلا بدافع من الاهتمام بالناحية العلاجية ، سيشيخون بوجوههم عنا احتقاراً بعد هذا الإقرار . ولكن اهتمامنا بالناحية العلاجية هنا قاصر على علاقاتها بالمناهج السيكولوجية ؛ ولا تهمنا حالياً من أى وجه آخر . وقد نتعلم فى المستقبل كيف تؤثر تأثيراً مباشراً ، بالاستعانة ببعض العقاقير الكيميائية ، فى كميات الطاقة وتوزيعها فى الجهاز النفسى . وربما اكتشفنا إمكانيات علاجية أخرى لم نحلم بها حتى الآن . ولكننا لا نملك فى الوقت الحاضر أفضل من التحليل النفسى ، ولهذا السبب فلا سبيل إلى احتقاره ، مهما كانت إمكانياته محدودة .

الفصل السابع

مثال للعمل التحليلي

كونا فكرة عامة عن الجهاز النفسى ، والأجزاء ، والأعضاء ، والمنظمات التى يتألف منها ، والقوة التى تعمل فيه ، والوظائف التى تؤديها أجزاؤه المختلفة . والأمراض العصبية والذهانية حالات تظهر فيها الاختلالات الوظيفية لهذا الجهاز . وقد اخترنا الأمراض العصبية موضوعاً لدراستنا لأنها وحدها هى التى يظهر أنها تقبل مناهجنا فى البحث السيكلوجى . وعندما نحاول أن نؤثر فيها ، فإننا نجمع ملاحظات توضح لنا تكوينها وطريقة ظهورها .

ولنقدم بذكر إحدى نتائجنا الرئيسية . فليست هناك علل طبيعية للأمراض العصبية ، على خلاف الأمراض المعدية مثلاً ، وعبث أن نبحث فيها عن عوامل تكوين المرض . وهى تتصل بالحالة التى تدعى بالسواء بسلسلة من الحالات الوسطى بينهما ، ومن الناحية الأخرى لا تكاد توجد حالة توصف بالسواء إلا وأمكن أن نتبين فيها آثاراً عصبية . فلا يكاد العصائيون يختلفون عن غيرهم من الناس فيما لديهم من

استعدادات ، وما يعانون من خبرات ، وما يواجهون من مشاكل تتطلب حلاً . فقيم إذن كانت حياتهم أكثر شقاء وأعظم مشقة ؟ ولم يقاسون خلال ذلك مشاعر الألم والقلق والعذاب أكثر من غيرهم ؟

ولا يصعب علينا أن نجد جواباً لهذا السؤال . فمرد آلام العصبيين ومتاعبهم إلى إنعدام التناسق من جهة الكم . وعلينا أن نبحث عن العلل التي تحدد الصور المختلفة للحياة النفسية الإنسانية في التفاعل بين الميول الموروثة والأحداث العارضة . لذا فقد يحدث أن تكون غريزة معينة بالغة القوة أو بالغة الضعف في الأصل ، أو أن يتوقف نمو مقدرة ما ، أو تنمو نمواً ناقصاً . ومن الناحية الأخرى ، قد يحدث أن تؤثر الانطباعات والأحداث الخارجية تأثيراً يختلف بحسب تكوين الأفراد ، فما يحتمله البعض يجده البعض مهمة بالغة الصعوبة . وهذه الفروق الكمية هي التي تحدد تنوع النتائج .

ولكن سرعان ما نكشف أن هذا التفسير غير كاف ، فهو أعم مما ينبغي له ، وهو يتجاوز في التفسير نطاقه . فإن العلل المتقدمة تصدق على كل حالات الشقاء والتعاسة والعجز النفسية . ولكن لا يمكن وصف كل حالة من هذا القبيل بأنها عصابية . فلأمراض العصابية سمات معينة ، وهي لون خاص من ألوان الشقاء . فعلى إذن ، بعد كل شيء ، أن نبحث عن علل نوعية لها . أو يمكننا أن نتصور أن من بين المهام التي يتعين على الحياة النفسية القيام بها ، أعمالاً معينة يمكن - على

وجه التخصيص - أن تخفق فيها بسهولة ؛ بحيث يمكن أن تفسر هذه الحقيقة تلك السمة الغريبة الملحوظة غالبًا للظواهر العصبية ، دون أن نضطر إلى العدول عن قضايانا الأولى . وإذا صح أن الأمراض العصبية لا تختلف اختلافًا جوهريًا عن حالات السواء ، فإن دراستها تبشر بزيادة معارفنا عن حالات السواء هذه ، بما تقدم من معلومات قيمة . وقد تتمكن بهذه الطريقة من اكتشاف «نقط الضعف» في التنظيم السويّ .

هذا الفرض الذي وضعناه له ما يؤيده . فقد علمتنا تجارب التحليل النفسي أن هناك بالفعل مطلبًا غريزيًا من السهل أن يخفق في علاجه ما نبذله من مجهود ، أو لا ينال إلا نجاحًا جزئيًا ، وأن هناك مرحلة من الحياة تعد الفترة الوحيدة - أو أهم الفترات - المناسبة لظهور العصاب . هذان العاملان : طبيعة الحافز ومرحلة الحياة المعلومة ، يقتضيان أن ندرسهما منفصلين ، وإن كانا يرتبطان في أغلب الأحيان .

ونستطيع أن نتكلم بقدر كاف من اليقين عن الدور الذي تؤديه مرحلة الحياة : فيبدو أن الأمراض العصبية لا تكتسب إلا أثناء عهد الطفولة الأولى (حتى سن السادسة) ، وإن كانت أعراضها لا تظهر إلا بعد ذلك بمدة طويلة . وقد يبدو العصاب الطفلي واضحًا فترة قصيرة ، أو قد يمر غير ملحوظ . والمرضى العصبي التالي تبدى - في كل الحالات - بوادره منذ الطفولة . ولربما شذت عن هذه القاعدة ما يدعى بأعصاب الصدمات (التي يحدثها الهلع المفرط ، والصدمات الجسمية العنيفة

كاصطدام قطار ، أو الانفجارات . . . إلخ) . فعلاقتها بالعامل الطفلى لا تزال تفتقر إلى بحث . ومن اليسير أن نفسر لم تختار الأمراض العصبية عهد الطفولة الأولى موعداً لظهورها . فالأمراض العصبية - كما نعلم - اضطرابات للأنا ، ولا غرابة فى أن يفشل الأنا - إبان ضعفه وعدم نضوجه وعجزه عن المقاومة - فى معالجة المشاكل التى يستطيع أن يحلها فيما بعد بلا عناء . (وتعمل المطالب الغريزية الداخلية - كالمنبهات الواردة من العالم الخارجى - عمل «الصددمات» ولا سيما إذا صادفت أمزجة معينة) . ويتقى الأنا العاجز هذه المشاكل بمحاولات الهرب (الكبت بأنواعه) التى تغدو فيما بعد عديمة الجدوى فتؤلف عقبات دائمة فى سبيل النمو اللاحق . وقد يبدو أن الضرر الذى يحققه الأنا من خبراته الأولى كبير إلى حد لا يتناسب معها . ولكن يكفى أن نذكر على سبيل التمثيل التباين العظيم بين ما تحدثه وخزات إبرة فى كتلة من الحويصلات الجرثومية أثناء الانقسام (كما فى تجربة رو) والذى تحدثه فى الحيوان كله الذى ينمو منها . ولا ينجو فرد إنسان من هذه الخبرات الصادمة ، ولا يفلت أحد من أنواع الكبت الذى تفضى إليه . وربما كانت هذه الاستجابات الخطيرة من جانب الأنا لابد منها لبلوغ هدف آخر مرتبط بنفس العهد من الحياة . وفى خلال سنوات قصار لابد للموجود البدائى الصغير أن ينمو حتى يصبح كائنًا إنسانيًا متحضرا ، عليه أن يقطع فى فترة من الزمن بالغة القصر - معظم الشوط الذى قطعه

الحضارة الإنسانية في تطورها . ويغدو هذا ممكنا بفضل المزاج الوراثي ، ولكنه لا يكاد يتحقق دون العون الإضافي الذي تقدمه التربية ، أى تأثير الوالدين ، وهذا التأثير يحدد نشاط الأنا بوصفه مبشراً بالآنا الأعلى من حيث التحريمات والعقوبات ، ويسر الشروع فى أنواع الكبت أو يفرضها . فيجب ألا ننسى إذن أن ندخل تأثير المدنية بين شروط الأعصبة . فإنه يسهل على الهمجى - كما ندرك - أن يكون سوياً ، وهى مهمة تشق على الإنسان المتحضر . وقد تبدو لنا الرغبة فى الحصول على آنا قوى غير مقيد أمراً مفهوماً ، ولكن هذا مناف للمدنية بأدق معانى الكلمة ، كما يعلمنا الزمن الحاضر . ولما كانت مطالب المدنية تتمثل فى التربية العائلية ، فلا يغبين عنا أن نضع بين أصول الأمراض العصابية هذه الخاصة البيولوجية للنوع البشرى : أى فترة الاعتماد الطويلة فى عهد الطفولة .

أما فيما يتعلق بالنقطة الأخرى ، أى العامل الغريزى النوعى ، فإننا نجد هنا تبايناً طريفاً بين النظرية والتجربة . فلا اعتراض - من الناحية النظرية - إذا ما افترضنا أن أى نوع من المطالب الغريزية أيّما ما كان يمكنه أن يحدث هذا الكبت نفسه ونتائجه ؛ لكن مشاهداتنا تبين لنا على الدوام - بقدر ما نستطيع أن نحكم - أن التهيجات التى تقوم بهذا الدور فى تكوين المريض إنما تنشأ من الميول الغريزية الجزئية المكونة للحياة الجنسية . ويمكن أن نقول أن أعراض الأمراض العصابية لا تعدو أن

تكون إشباعاً إبدالياً لحافز جنسى ما ، أو إجراءات للحيلولة دونه ، وهى فى الأغلب والأعم توفيق بين الاثنين ، من ذلك النمط الذى ينشأ طبقاً للقوانين التى تجمع بين الأضداد فى اللاشعور . وليس بوسعنا حالياً أن نسد الثغرات فى نظريتنا ، وتزداد صعوبة الحسم نظراً لأن معظم حوافز الحياة الجنسية ليست شهوانية خالصة ، ولكنها تصدر عن أمزجة من الإيروس والمكونات الغريزية التدميرية . ولا سبيل إلى الشك فى أن الميول الغريزية التى تفصح عن نفسها إقصاحاً فسيولوجياً فى الصورة الجنسية تقوم بدور بارز وأعظم مما نتوقع فى إحداث الأمراض العصابية . أما أنها هى العامل الوحيد ، فقول لم يتقرر بعد . ولا يغبين عنا أنه ما من وظيفة تعرض خلال التطور الحضارى لمثل ما تعرضت له الوظيفة الجنسية بالذات من كبت عنيف واسع النطاق . ولا بد للنظرية من أن تقنع بأمور قليلة تكشف عن علاقة أعمق ، أعنى القول بأن العهد الأول للطفولة ، الذى يبدأ الأنا أثناءه فى التفاضل عن الهو ، هو أيضاً عهد الازدهار الجنسى الأول الذى ينتهى بمرحلة الكمون ، وأنه لا يمكن أن يكون من قبيل الصدفة والاتفاق أن تقع هذه الفترة الأولى الهامة فريسة لفقدان الذاكرة الطفلى بعد ذلك ، وأخيراً أن التعديلات البيولوجية فى الحياة الجنسية ، كورودها على موجتين كما أشرنا الآن ، وإنعدام الطابع الموسمى للتهيج الجنسى ، وتحول العلاقة بين الحيض الأنثوى والتهيج الذكرى ، وكل هذه المظاهر المستحدثة فى الجنسية لابد وأن تكون لها أهمية عظمى فى تطور الحيوان إلى النوع الإنسانى . ونترك للعلم فى

المستقبل أن يجمع هذه الحقائق المنفصلة فى فهم جديد . وعلم الأحياء - لا علم النفس - هو المسئول عن هذه الثغرات . وقد لا نعدو الحق حين نقول إن نقطة الضعف فى تنظيم الأنا تنحصر فى سلوكية تجاه الوظيفة الجنسية ، كما لو كان التعارض البيولوجى بين حفظ الذات وحفظ النوع يجد هنا تعبيراً سيكولوجياً عنه .

ولما كانت التجربة التحليلية قد أقنعتنا بصدق ذلك القول الشائع بأن الطفل أبو الرجل من الناحية السيكلوجية ، وأن خبرات سنه الأولى لها أبلغ الأثر فى حياته اللاحقة كلها ، فيجب أن نعنى بوجه خاص بالتساؤل عما إذا كان ثمة ما يمكن أن نصفه بأنه السخرة المركزية فى عهد الطفولة هذا . ويسترعى انتباهنا لأول وهلة أصداء تأثيرات معينة تحدث غالباً ، كمحاولة الكبار اختصاب الأطفال ، كالتغريب بهم من قبل أطفال آخرين (أشقاء أو شقيقات) يكبرونهم بقليل ، وأخيراً تلك الخبرة الانفعالية غير المتوقعة ، والتي تنجم عن مشاهدة المباشرة الجنسية بين الراشدين (بين الأبوين) أو السماع بها عرضاً ، ولا سيما فى عهد لا يتطرق فيه إلى ظن أحد أنهم يهتمون فيه بهذه الانطباعات أو يفهمونها أو يستطيعون تذكرها فيما بعد . ومن اليسير أن نقدر مدى ما تبلغه حساسية الطفل عندما تثيرها خبرات من هذا القبيل ، وكيف تندفع حوافزه الجنسية إلى قنوات لا يمكنها أن تبارحها بعد ذلك . ولما كانت هذه الخبرات الانفعالية تكبت إما مباشرة أو حين تعود فى شكل ذكريات ، فإنها تمهد للقهقير العصابى

، الذى يحول فيما بعد بين الأنا والسيطرة على الوظيفة الجنسية ، وربما أدى به إلى العزوف نهائياً عن تلك الوظيفة . والحالة الأخيرة تفضى إلى العصاب ، ولكن إذا لم يحدث هذا العصاب ، فستنشأ انحرافات جنسية عديدة ، أو قد تتقوض الوظيفة ذاتها ، على مالها من أهمية عظمى فى التناسل وفى سيرة الحياة بأكملها .

ومهما عظم مغزى هذه الحالات ، فإن هناك موقفاً آخر أجدر منها بإثارة اهتمامنا ، موقفاً قُدِّرَ على كل طفل أن يمر به ، وينتج بالضرورة من فترة الاعتماد المديدة فى طفولته ، وعن حياته مع أبويه - وأعنى به عقدة أوديب التى أطلق عليها هذا الاسم لأن مضمونها الجوهرى موجود فى الأسطورة اليونانية «أوديب ملكاً» التى أبقي عليها من الاندثار - لحسن الحظ - مؤلف مسرحى كبير^(١) . فقد قتل البطل اليونانى أباه وتزوج أمه . حقيقة إنه فعل هذا دون علم منه . إذ أنه كان يجهل أن الأمر يتعلق بوالديه ، ولكن هذا تحريف للمضمون التحليلى ليس من العسير فهمه ولم يكن منه مناص .

ويتعين علينا الآن أن نورد بياناً مستقلاً عن كل من الصبيان والبنات (الرجال والنساء) فى تطورهم ، حيث نصادف لأول مرة تعبيراً نفسياً عن الاختلاف بين الجنسين . وهنا يقابلنا لغز مستغلِق فى المشكلة التى

(١) [سوفوكليس] - (المترجمان) .

تضعها واقعةً بيولوجية ، نعنى واقعة وجود جنسين . وعندها تقف معارفنا ، إذ لا نستطيع أن نردها إلى شىء آخر . ولم يسهم التحليل النفسى فى حل هذه المشكلة ، إذ لا شك فى أنها من صميم علم الأحياء . أما فى الحياة النفسية ، فلا نجد إلا الأصدقاء لذلك التباين العظيم ، وتصطدم تفسيراتنا بصعوبة ما فتئنا منذ عهد بعيد نحدهس سرها . فإن الفرد لا يقتصر على أن يتتخى منحى جنسه هو ، بل ويقبل أيضا أن يتتخى - إلى حد ما - مناحى الجنس الآخر ، مثلما يحتفظ جسمه ببقايا الأعضاء الجنسية الناقصة النمو والعديمة النفع غالباً ، الخاصة بالجنس الآخر إلى جانب الأعضاء الجنسية التامة النمو الخاصة بجنسه هو . ولكى نميز من الناحية النفسية بين ما هو مذكر وما هو مؤنث ، نعاذل معادلة ينقصها التمحيص العلمى بلا شك : نعاذل بين الذكورة والقوة والفعالية ، وبين الأنوثة والضعف والسلبية . وتقف الثنائية الجنسية النفسية حجر عثرة فى أبحاثنا، وتزيد الوصف مشقة .

وأول موضوع شهوانى عند الطفل هو ثدى أمه الذى يغذيه ، ويتصل الحب فى بدايته بإشباع الحاجة إلى الطعام . ولا يميز الطفل قطعاً فى البداية بين الثدى وجسمه هو . وإذا يتبين أن هذا الثدى يغيب عنه كثيراً ، فإنه يميز بينه وبين جسمه ، ويعتبره خارجاً عنه . وهنا يصبح الثدى «موضوعاً» محملاً بجزء من الشحنة النرجسية الأولية . ويكتمل هذا الموضوع الأول فيما بعد فيصبح شخص الأم كله . وهذه الأم لا تقتصر

على إطعامه فحسب ، بل وتعنى به أيضاً فتثير فيه إحساسات جسمية بعضها لاذً وبعضها مؤلم . وتغدو أول مغوية للطفل - لعنايتها بجسمه . وبفضل هاتين العلاقتين ، تنال الأم أهمية فريدة لا تضارع ولا تتغير ولا تزول مدى الحياة ، وتصبح - عند الجنسين على السواء - موضوع أول حب وأقواء ، ونموذجاً لكل علاقات الحب اللاحقة . وللأساس المستمد من تاريخ السلالة البشرية أهمية تفوق الخبرة الشخصية العارضة ، بحيث يستوى أن يرضع الطفل من الثدي فعلاً ، أو أن يربى على البزارة محروماً من رعاية الأم وحنانها . والتطور واحد في الحالتين . وقد يحدث فى الحالة الأخيرة أن يقوى حنينه فيما بعد . أما فى الحالة الأولى ، فمهما طال أمد رضاعة الطفل من ثدى أمه ، فسيظل دائماً - بعد الفطام - موقناً بأنها كانت فترة شحيحة بالغة القصر .

ولا تخلو هذه المقدمة من الفائدة ، فهى تعدنا لفهم شدة وطأة عقدة أوديب . فعندما يدخل الطفل الذكر (بين سنتيه الثانية والثالثة) المرحلة القضيبية من تطوره الليبيدى ، ويستشعر أحاسيس اللذة فى عضوه الجنسي ، ويتعلم كيف يحصل عليها وفق هواه بالاستثارة اليدوية - حينئذ يصبح حبيباً لأمه ويتمنى أن تكون له جسدياً على النحو الذى استنتجه من مشاهداته وتخميناته عن الحياة الجنسية . ويحاول أن يغويها بأن يعرض أمامها قضيبه الذى تفعمه حيارته إياه فخراً . وبعبارة موجزة - فإن ذكوره المبكرة الاستيقاظ تحمله على السعى للحلول لديها محل أبيه ، فقد ظل

أبوه حتى الآن نموذجًا يتطلع إليه بعين الحسد ، للقوة الجسدية التي يديها ، والسلطان الذي يخف به . أما الآن فقد غدا أبوه منافسًا يقف في طريقه ، ويريد أن يبعده عن الطريق . وعندما يتاح له إبان غيبة أبيه أن يشاطر أمه الفراش ، وعندما يقضى عنه ثانية عند عودة أبيه ، فإنه يشعر شعورًا عميقًا بالرضى عند غيبة أبيه . والسخط عند عودته . هذا هو مضمون عقدة أوديب التي نقلتها الأسطورة اليونانية من عالم تخيلات الطفولة إلى عالم الواقع المزعوم . وتدخر حضارتنا الراهنة لهذه العقدة نهاية رهيبة .

وتفهم الأم حق الفهم أن تهيج الطفل الجنسي منصب عليها . ولا تلبث أن تقرر الأم أن من الخطأ أن تترك له الحبل على الغارب . فهي تعتقد أنها تحسن صنعًا عندما تمنعه من اللعب اليدوي بعضوه . على أن هذا التحريم لا يحدث أثرًا كبيرًا ولا يؤدي على أكثر تقدير - إلا إلى تعديل في طريقته للحصول على الإشباع الذاتى . وأخيرًا تلجأ أمه إلى أعنف الإجراءات - فتهدده بأن تسلبه ذلك الشيء الذى يتحداها به ، ولكى تجعل التهديد أكثر وقعًا وأقرب إلى التصديق ، تعلن عادة أنها ستكل التنفيذ إلى الأب ، وتقول إنها ستخبره حتى يقوم ببتر القضيب . والغريب حقًا أن هذا التهديد لا يحدث أثره إلا إذا تحقق شرط آخر إما قبله أو بعده ، أما التهديد فى حد ذاته ، فلا يصدقه الطفل ، ولا يتصور إمكان حدوث مثل هذه العقوبة . ولكنه إذا تذكر - أثناء التهديد - منظر

الأعضاء التناسلية الأنثوية ، أو إذا اختلس - بعد مثل هذا التهديد بقليل - نظرة إلى تلك الأعضاء التى ينقصها بالفعل ذلك الجزء القيم ، حينئذ يصدق جدية التهديد الذى سمعه ، فيقع تحت تأثير عقدة الخصاء ، ويعانى أقصى صدمة فى حياته المبكرة^(١) .

وآثار التهديد بالخصاء عديدة لا تحصى ، فإنها تؤثر فى علاقات الولد بأبيه وأمه ، وبالتالي فى علاقاته بالرجال والنساء عامة . وتعجز ذكورة الطفل عادة عن احتمال هذه الصدمة الأولى . ولكى يبقى على أعضائه التناسلية ، يتجاوز عن امتلاك أمه تجاورا يكاد يكون تاماً ، وغالباً ما تظل حياته الجنسية تروح دائماً تحت وطأة التحريم . وإذا كان لديه ما نسميه مقوماً أنثوياً قوياً ، فإنه يزداد بالتهديد الموجه إلى ذكورته . فينحدر إلى موقف سلبي تجاه أبيه ، يماثل الموقف الذى ينسبه إلى

(١) الخصاء موجود أيضاً فى أسطورة أوديب ، فليس العمى الذى عاقب أوديب نفسه به بعد اكتشاف جريمته إلا بديلاً رمزياً للخصاء كما تدل شواهد الأحلام ، ولا تستبعد أن يكون الفزع الخارق الذى يبعثه هذا التهديد ، راجعاً إلى أثر فى الذاكرة من تاريخ السلالة البشرية ومن مخلفات حقبة قبل التاريخ كان الأب الغيور فيها يسلب ابنه بالفعل أعضائه التناسلية عندما يعتبر غريباً فى امرأة . وهناك عادة بدائية أخرى هى الختان - وهو بديل رمزى آخر للخصاء - لا يمكن أن نفهمها إلا بوصفها تعبيراً عن الخضوع لإرادة الأب (قارن طقوس البلوغ لدى البدائيين) . ولم تدرس بعد الأشكال التى تتخذها هذه الوقائع التى نحن بصدها عند الشعوب والمدنيات التى لا تقمع الاستمناء عند الأطفال .

أمه . وهو إن كان قد أقطع من الاستمناء نتيجة للتهديد ، فإنه لم يقلع عن التخييلات التي تصاحبه . بل على الضد . لما كانت الآن هي كل ما تبقى لديه من صور الإشباع الجنسي ، فإنه يزاولها أكثر من ذي قبل ، وإذ يمضى - فى هذه التخييلات - يتوحد بأبيه كما كان يفعل من قبل ، فإنه يتوحد بأمه ، بل قد يكون هذا التوحد الأخير هو الأغلب . وتتسلل مشتقات هذه التخييلات الاستمنائية الأولى ونتائجها المعدلة إلى نطاق الأنا لديه ، وتسهم فى تكوين خلقه . وفضلاً عن إذكاء أئوئته ، يزداد قلقه من أبيه وتعظم كراهيته له احتداماً . وتنحصر ذكورة الطفل بما يشبه التمرد على أبيه ، وهذا يؤثر حتماً فى سلوكه اللاحق فى المجتمع الإنسانى ، وكثيراً ما تظل بقية من تشبثه الشهوانى بأمه - فى صورة إفراط فى الاعتماد عليها ، ويدوم هذا فى صورة موقف الخنوع تجاه النساء ولا يغامر بعد ذلك بعشق أمه ، ولكنه لا يجسر على احتمال فقدان محبتها له ، وإلا ظل فى هذه الحالة مهدداً بوشايتها به عند أبيه ، ومعرضاً للخصاء ، وتعرض التجربة كلها ، بكل مقدماتها ونتائجها التى لم تستطع أن نذكر منها إلا القليل ، لكبت قوى عال . وبفضل القوانين التى يخضع لها الهو اللاشعورى ، يتسنى لكل الحوافز الانفعالية والاستجابات المتناقضة التى تنشط آنذاك - أن تبقى فى اللاشعور وتكون على أهبة لتعطيل النمو اللاحق للأنا بعد البلوغ . وعندما تبعث العملية الجسمية للنضوج الجنسي حياة جديدة فى التشبثات الليبيدية القديمة التى

نبذت فى الظاهر ، تبدو الحياة الجنسية معطلة ، خلواً من الوحدة ، مبددة بين حوافز متصارعة .

ولا شك فى أن تدخل التهديد بالخصاء لا يفضى دائماً إلى هذه النتائج الرهيبة فى الحياة الجنسية المتفتحة لدى الصبى . وهنا أيضاً يتوقف مبلغ الضرر الحادث والضرر الذى يمكن تفاديه على علاقات كمية . ويمكننا أيضاً أن نعتبر هذه الأحداث الخبرة الرئيسية لسنى الطفولة ، وأخطر مشاكل العهد الأول فى الحياة ، وأقوى مصدر لاضطراب السلوك فى المستقبل . وهى تنسى نسياناً عميقاً بحيث تصطدم استعادتها - فى عملية التحليل - بإنكار قاطع من قبل اللاشعور . وانفصالها عنه يبلغ حدًا يجعل المرء يمتنع عن ذكر هذا الموضوع المحرّم ، ويغشى على بصيرته فلا يتبين أوضح شواهد . فيعترض مثلاً بأن أسطورة «أوديب ملكاً» لا تمت فى الواقع بصلة إلى الاستنتاج الذى توصلنا إليه بالتحليل ، فهى شىء جد مختلف ، فأوديب لم يكن يعرف أنه قتل أباه وأنه تزوج أمه ولكن يجب ألا يغيب عنا أن تحريضاً كهذا لم يكن منه بد عند محاولة صياغة الموضوع صياغة شعورية ، وأنه ليس ثمة عناصر دخيلة ، بل معالجة بارعة للعناصر الموجودة فى الموضوع . فجهل أوديب تصوير مشروع لحالة اللاشعور التى انحدرت إليها التجربة بتمامها عند البالغين ؛ وحكم النبوءة الذى يرى البطل أو يجب أن يبرئه اعتراف بالقدر الذى لا مفر منه والذى يفرض على الأبناء جميعاً أن يمروا بعقدة أوديب . كذلك أشار بعض المشتغلين بالتحليل النفسى إلى أنه يمكن حل لغز

شخصية شعرية أخرى ، نعى هملت ، ذاك البطل المتردد ، الذى خلقه شكسبير من بعد ، برده إلى عقدة أوديب . فقد أحجم الأمير عن توقيع العقوبة على شخص آخر من أجل عمل يطابق جوهر رغباته الأوديبية . ويبين استعصاء هذه المسرحية على الفهم فى عالم الأدب مبلغ تشبث الإنسان بكبته الطفلى^(١) .

ومع ذلك فقد استطاع الفيلسوف الفرنسى ديدروه ، قبل ميلاد التحليل النفسى بأكثر من قرن ، أن يوضح أهمية عقد أوديب ، وهو بصدد بيان الفرق بين العالم البدائى والعالم المتحضر فى العبارة التالية :

«لو ترك الهمجى الصغير وشأنه ، واحتفظ بكل حماقته ، وجمع بين ضعف إدراك الطفل فى المهد ، وعنف شهوات رجل الثلاثين ، إذن لدق عنق أبيه وضاجع أمه»^(٢) .

ويحق لى أن أقول إنه لو لم يكن للتحليل النفسى إلا فخر اكتشاف عقدة أوديب المكبوتة ، لكان ذلك وحده خليقاً بأن ينظمه فى عداد أئمن ما كسب الجنس الإنسانى حديثاً .

(١) يغلب على الظن أن (وليم شكسبير) اسم مستعار يستتر خلفه عظيم مجهول : وقد حدث لإدوارد دى فير ، إيرل أوف أكسفورد ، الذى اعتبر صاحب مؤلفات شكسبير ، أن فقد أباه الذى يحبه ويعجب به وهو لا يزال صبيّاً ، وانفصل عن والدته التى ارتبطت بزيجة جديدة ، بعد وفاة زوجها بقليل .

(٢) [بالفرنسية فى النص الألمانى] (المترجمان) .

أما عند البنات ، فأثار عقدة الخصاء أكثر انتظاماً ، ولكنها ليست أقل عمقاً . ولا حاجة بالطفلة ، بطبيعة الحال ، إلى الخسوف من فقد القضيب ؛ ومع ذلك فلا بد من أن تتأثر من كونها لم تحصل عليه . وهي تحسد الصبيان منذ البداية على حيازتهم إياه ، ويمكن القول إن تطور حياتها بأسرها خاضع للحسد من القضيب . وتبدأ بأن تبذل محاولات فاشلة للقيام بما يقوم الصبيان به ، وبعد ذلك يزداد حظها من النجاح لتعويض عن هذا النقص ، وتؤدي هذه المحاولات في النهاية إلى إتجاه أنثوى سوى . وعندما تحاول أثناء المرحلة القضيبية أن تحصل على اللذة - شأن الصبي - بإثارة أعضائها التناسلية إثارة يدوية ، فغالباً ما لا تحصل على إشباع كافٍ ، فيمتد شعور النقص من قضيبها المنقوص إلى شخصها بأسره ، وهي تطلع عادة عن الاستمئاء ، لأنها لا تحب أن يذكرها هذا بتفوق أخيها أو رفيقها في اللعب ، وتعزف عن الحياة الجنسية عزوفاً تاماً .

وإذا تشبثت البنت برغبتها الأولى في أن تصبح غلاماً ، فإن هذا ينتهي بها في الحالات المتطرفة إلى أن تعشق النساء ، فتتسم في سلوكها وفي حياتها اللاحقة بسمات الذكورة ، وتزاول إحدى مهن الرجال ، وهلم جرأً . أما الطريق الآخر فيفضي إلى هجران الأم التي كانت تحبها : ذلك بأن البنت قد نال منها الحسد من القضيب كل منال لا يمكنها أن تغفر لأمها أنها بعثت بها إلى العالم غير مجهزة تجهيزاً كافياً . وفي سخطها ذاك ، تهجر أمها وتتخذ بدلاً منها موضوعاً لمحبتها شخصاً آخر هو أبوها . وعندما يفقد الإنسان موضوع حبه فإن الموقف

الطبيعى هو أن يتوحد فى ذاته بهذا الموضوع ، وهنا تغدو هذه العملية عوناً للبنت الصغيرة . فيحل توحيدها بأمها محل تعلقها بها . فتضع البنت نفسها موضع أمها - كما كانت تفعل دائماً فى ألعابها ، وتحاول أن تأخذ محل أمها تجاه أبيها فتبغض أمها التى كانت تحبها حتى ذلك الوقت ، وذلك لسبيين : الغيرة والضغينة التى أثارها حرمانها من القضيب . وقد تنشأ علاقتها الجديدة مع أبيها بادية ذى بدء على أساس رغبتها فى أن تستأثر بقضيبه ، ولكنها تسفر عن رغبة أخرى - هى إنجاب طفل هدية منه . وتحل الرغبة فى الوليد محل الرغبة فى القضيب ، أو تنفرع عنها على الأقل .

ومن الشيق أن العلاقة بين عقدة أوديب وعقدة الخصاء عند الذكور ، مختلفة جداً الاختلاف بل تناقض ما هى عليه عند الإناث . فلدى الذكر يفضى تهديد الخصاء - كما رأينا - إلى نهاية عقدة أوديب ؛ وعلى الضد ، نجد لدى الأنثى أن ما يدفعها إلى عقدة أوديب عطلها عن القضيب . ولا يضر المرأة كثيراً أن تبقى فى موقعها الأوديبى الأنثوى . (وقد اقترح أن يسمى «عقدة الكترا» . فهى تختار إذ ذاك رجلاً لما تجد فيه من خصال أبيها ، وترضى بسلطته . أما ظمؤها الذى لا يرتوى إلى امتلاك القضيب ، فيمكن إشباعه إذا أفلحت فى تحويل شغفها بالعضو إلى شغف الرجل الذى يحمله ، مثلما انتقلت من قبل من ثدى أمها إلى أمها بأكملها .

وإذا ما ساء لنا خبرة المحلل : أى المركبات النفسية يراها على ضوء تجربته أكثر امتناعاً على التحليل ، لكانت الإجابة : لدى المرأة الرغبة فى القضيب ، ولدى الرجل الموقف الأنثوى تجاه جنسه الذى يستلزم فقدان القضيب .

القسم الثالث
المحصول النظري

الفصل الثامن

الجهاز النفسى والعالم الخارجى

من البين أن كل الآراء والفروض العامة التى وضعناها فى الفصل الأول ، توصلنا إليها بعمل صعب عسير أوردنا مثالا له فى القسم السابق . وذلك ما يغرينا الآن باستعراض ما أضافه إلى معرفتنا مثل هذا العمل ومعرفة أى طرق للبحث المستقبل قد فتحناها أمامنا . وهنا قد نعجب لأننا اضطررنا فى أغلب الأحيان إلى المضى إلى ما وراء حدود علم النفس . فإن الظواهر التى تناولناها بالدرس لا تتصل بعلم النفس وحده ، بل إن لها أيضا جانباً عضوياً بيولوجياً ؛ ومن ثمة فقد تأدينا ، ونحن نجهد فى بناء التحليل النفسى ، إلى كشف بيولوجية هامة ، ولم نحجم عن تكوين فروض بيولوجية جديدة .

ولكن فلنقتصر بادية ذى بدء على علم النفس . فقد اكتشفنا أن من المحال علمياً أن نضع خطأ فاصلاً بين ما هو سوى وما هو شاذ من الناحية النفسية ، بحيث لا يكون لهذا التمييز إلا قيمة اعتبارية ، رغم أهميته العملية . وبذلك أثبتنا حقنا فى تفهم الحياة النفسية السوية بدراسة

اضطراباتهما ، وهذا لا يتيسر إذا كانت هذه الأحوال المرضية من أعصبة
وذهانات لها علل نوعية على نمط الأجسام الغريبة .

وقد ساعدتنا دراسة الاختلاط النفسى الذى يحدث أثناء النوم ، وهو
حالة عابرة لا ضرر منها بل وتقوم بوظيفة نافعة ، فمكتنا من فهم
الأمراض النفسية وهى أحوال دائمة تقوض حياة المريض . ويحق لنا الآن
أن نقرر أن سيكولوجية الشعور لم تكن أقلر على فهم العمليات السوية
للنفس منها على فهم الحلم . ولقد قام الدليل دائماً على أن وقائع
الإدراك الشعورى للذات، وهى التى لم نكن نملك سواها ما تقصر دائماً
عن الإحاطة بتعدد العمليات النفسية وتعقدها ، وعن كشف علاقاتها
المتبادلة ، وبالتالي عن التوصل إلى تحديد شروط اضطرابها .

ولقد ذهبنا إلى فرض وجود جهاز نفسى ، ممتد فى المكان ،
ومركب تركيباً مناسباً ، وينمو وفقاً لمقتضيات الحياة ، ولا تبدو فيه
ظواهر الشعور، إلا عند نقطة خاصة ، وفى ظروف معينة . وقد أتاح لنا
هذا الفرض أن نقيم علم النفس على أسس مشابهة لما قامت عليه العلوم
الأخرى ، كالفيزيقا مثلاً ، ونجد أن المهمة ههنا لا تختلف عنها فى
العلوم الأخرى: قوراء إدراكنا للخصائص المباشرة (الكيفيات) لموضوع
البحث علينا أن نكتشف شيئاً أدق مما تدركه حواسنا وأقرب إلى ما
يمكن أن يكون واقع الأشياء . ولا أمل لنا فى بلوغ الواقع ذاته ، إذ أن
من الواضح أن كل جديد نستنتجه يجب أن يترجم ثانية إلى لغة مدركاتنا
الحسية التى يستحيل علينا أن نتحرر منها . ولكن ذلك بالذات هو طبيعة

علمنا وحدوده . ويبدو الأمر كما لو كنا نقول فى الفيزيقا مثلاً ، لو استطعنا أن نرى بوضوح كافٍ لأدركنا أن ما يظهر لنا موضوعاً صلباً يتكون فى الحقيقة من جسيمات ذات شكل معين وأحجام معينة ووضع معين . ومن هنا نحاول أن نزيد من مقدرة أعضائنا الحسية ما أمكننا بوسائل صناعية ، ولكن يجب أن نذكر أن هذه الجهود تخفق فى بلوغ النتيجة النهائية وسيظل الواقع «مستعصياً على الإدراك أبداً» . وكل ما يفيد البحث العلمى من إدراكاتنا الحسية الأولية هو الكشف عن الروابط والعلاقات الموجودة فى العالم الخارجى ، والتى يمكن أن نمثلها ونستعيدنا فى عالمنا الفكرى الداخلى ، وتعيننا معرفتها على «فهم» بعض ظواهر العالم الخارجى والتنبؤ بها ، وتغييرها إن أمكن . وهذا على التحديد ما نعمله فى التحليل النفسى ، فقد اكتشفنا طريقة فنية مكنتنا من ملء الشغرات فى ظواهر الشعور ، ونحن نستعين بها كما يستعين عالم الفيزيقا بالتجريد . وبهذه الطريقة استنتجنا عدداً من العمليات التى لا سبيل إلى إدراكها فى ذاتها وبذاتها ، وأضفناها إلى العمليات التى ندركها . وحينما نقول مثلاً : «هنا تسلك ذكرى لا شعورية» فإن هذا معناه «هنا عرض أمر لا يمكن أن نتصوره ، ولكنه لا يمكن ، إذا بلغ شعورنا ، إلا أن يوصف بأنه كذا وكذا» .

ولا شك أن حقنا فيما ذهبنا إليه من نتائج وتعميمات ومدى درجة اليقين فيها ، سيبقى عرضة للنقد فى كل مثال ، وعلينا أن نعترف بأنه

كثيراً ما يتعذر علينا أن نحسم فى الأمر ، مما كان سبباً فى تعدد آراء كثير من المحللين . ولا شك أن جودة المشكلة ، ومن قلة التدريب ، مسئولة عن هذا إلى حد ما ، غير أن ثمة عاملاً خاصاً يرجع إلى طبيعة الموضوع ذاته ، إذ تختلف الموضوعات فى علم النفس عنها فى علم الطبيعة ، لأنها لا تقتصر على إثارة اهتمام علمى بالغ . فلا عجب إذن أن نجد محللة لم تكن قد اقتنعت اقتناعاً كافياً بشدة رغبتها فى القضيب ، تخفق فى تبين أهمية هذا العامل عند مرضاها . ولكن مصادر الأخطاء الناشئة عن المعادلة الشخصية ليست لها أهمية كبيرة فى نهاية الأمر . وعندما تتصفح المراجع القديمة فى استخدام الميكروسكوب ، نعجب - والطريقة ما تزال ناشئة - لما كان يشترط فى شخصية الملاحظ الذى يستخدم الجهاز من شروط . ولا نجد من هذا الآن شيئاً .

ولا يسعنا فى هذا المقام أن نحاول تصوير الجهاز النفسى ووظائفه تصويراً كاملاً . ولو فعلنا لحال دون ذلك أن التحليل النفسى لم يتسع له حتى الآن أن يدرس هذه الوظائف جميعاً على السواء ، فلنكتفِ إذن بتخليص وافٍ لنتائجنا فى جزئنا التمهيدي .

يتألف لب وجودنا إذن من «الهو» المعتم ، الذى لا علاقة مباشرة له بالعالم الخارجى ، بل إنه لا يعرض لمعرفتنا إلا بواسطة منظمة نفسية أخرى . وفى هذا الهو ، تعمل الغرائز العضوية التى تتكون ذاتها من امتزاج قوتين أوليتين (الإروس والتدمير) بنسب متفاوتة . وتتفاضل

إحداهما عن الأخرى من خلال علاقتها بالأعضاء أو بمجموعات الأعضاء . وهم هذه الغرائز الأول هو الحصول على الإشباع الذى تترقبه عن طريق تغييرات الأعضاء بمساعدة موضوعات العالم الخارجى . وإشباع الغرائز إشباعاً عاجلاً مطلقاً ، كما يشتهى الهو ، يفضى إلى صراع خطر مع العالم الخارجى ويؤدى إلى الدمار . ولا يحفل الهو بما يكفل المستقبل ، ولا يعتوره القلق ، وربما كان الأصح أن نقول إن الهو ، وإن كان يساهم فى العناصر الحسية للقلق ، إلا أنه لا يستغلها . وتختلف العمليات التى تقع لهذه العناصر النفسية الهو أو تقع فيما بينها «العمليات الأولية» اختلافاً كبيراً عن العمليات المألوفة لنا بالإدراك الشعورى فى حياتنا الانفعالية والإدراكية . ولا تخضع لما يفرضه المنطق من قيود النقد ، إذ ينبذ المنطق بعض هذه العمليات بوصفها باطلة ، بل وقد يسعى إلى القضاء عليها .

ولما كان الهو بمنأى عن العالم الخارجى ، كان له عالمه الخاص من الإدراك الحسى . فهو يلمس بدقة بالغة بعض التغييرات التى تطرأ عليه من الداخل ، ولا سيما تذبذب التوتر فى حاجاته الغريزية ، وهو تذبذب يستشعر فى أحاسيس توالى اللذة والألم . ولا شك أن من الصعب تعيين الأعضاء الحسية الطرفية التى تسلكها وتصدر عنها هذ الأحاسيس . ولكن الذى لا شك فيه أن الإدراكات الحسية الذاتية ، أى المشاعر الحشوية ومشاعر اللذة والألم ، تستبد بالسيطرة على أحداث الهو

. فـالـهـو يـخـضـع لمبـدأ اللـذـة الـذـى لا مـفـر مـنـه . وـلـكـنـه لا يـنـفـرد بـذـلـك ، إذ يـبـدو أن نـشـاط المـنـظـمـات النـفـسـيـة الأـخـرى يـتـسـجـه إلـى تـعـدـيـل مـبـدأ اللـذـة فـحـسـب ، وـلـكـنـه لا يـمـلـك القـضـاء عـلـيـه ، وـهـنا تـجـابـهـنا مـسـأـلة نـظـريـة عـلـى جـانـب كـبـيـر مـن الأـهـمـيـة وـلـم تـجـد لـها جـوـابًا بـعـد وـهـى : مـتـى وـكـيـف يـمـكـن التـغـلـب عـلـى مـبـدأ اللـذـة ؟ وإـن اـعـتـبـار أن مـبـدأ اللـذـة يـقـتـضـى خـفـض تـوتـرـات الحـاجـات الغـريـزيـة ، بـل والقـضـاء عـلـيـها فـى نـهـايـة الأـمـر (النـرـفـانـا) يـؤـدى بـنا إلـى العـلـاقـات الـتى لـم تـقـدّر بـعـد وـالـتى تـرـبـط مـبـدأ اللـذـة بـالقـوتـيـن الأـولـيـتـيـن : الإـرـوس وـغـريـزة المـوت .

أما المـنـظـمة النـفـسـيـة الأـخـرى ، نـعـنى الأنا ، فـنـعـتـقـد أنـنا نـعـرـفـها مـعـرفـة أفضـل ، كـما أنا نـسـتـبـيـن فـيـها أنـفـسـنا فـى يـسر . وـقـد تـكـونـت هـذه المـنـظـمة مـن الطـبـقة اللـحـائـيـة للهـو ، فـكـانـت مـتـصـلة اتـصـالاً مـبـاشـراً بـالعـالـم الخـارجـى (الـواقـع) حـيـث قـد تـم إـعـداـدهـا لـتـلقـى التـنـبـهـات واستـبـعـادـها . وـيـبـدأ الأنا مـن الإـدراك الحـسـى الشـعـورى ، ثم يـوسـع نـطاـقه ويمـدـه إلـى طـبـقـات أعمـق فـأعمـق مـن الهـو . وـفى اعـتـمـاده عـلـى العـالـم الخـارجـى ، إـشـارـة إلـى أصـله الـذى لا يـمـحـى (مـن قـبـيـل : صـنـع فـى أـلمـانـيا مـثـلاً)^(١) . وـتـنـحـصـر وظيفـته النـفـسـيـة فـى الـارتـقـاء بـالعـمـليـات الـتى تـجـرى فـى الهـو إلـى مـسـتـوى دـيـنامـى أعلـى (وـربـما كان ذـلـك بـتـحوـيـل الطـاقـة المـتـحـركـة الحـرة إلـى طـاقـة مـقـيـدة تـقـابـلـها الحـالـة القـبـلـشـعـوريـة) . وـتـنـحـصـر وظيفـته الإنـشـائـيـة فـى وـضـعه . بـيـن

(١) [بالإنجليزية فى الأصل] (المترجمان) .

المطلب الغريزي والفعل الذى يشبعه ، نشاطا ذهنيا يسعى إلى التنبؤ
بنتيجة المحاولات المقصودة على ضوء الحاضر واستغلال الخبرات
السابقة . وعلى هذا النحو يصل الأنا إلى تقرير ما إذا كان ينبغي المضي
فى محاولة الإشباع أم إرجاؤها أم القضاء كلية على مطلب الغريزة بمثابته
خطراً (مبدأ الواقع) . وكما أن الهو لا يستهدف إلا الحصول على اللذة ،
فإن الأنا لا يعنى إلا بتوفير الطمأنينة . فقد أخذ الأنا على عاتقه مهمة
حفظ المذات ، تلك المهمة التى يبدو أن الهو قد أهملها . ويستخدم
أحاسيس القلق نذيراً بالأخطار التى تتهدد تكامله . ولما كان يمكن
للذكرى أن تصبح شعورية فى صورة إدراكات حسية ، ولا سيما
لإرتباطها بالبواقى اللفظية ، قام احتمال خلط يؤدي إلى سوء إدراك
للواقع . وبقي الأنا ذاته منه عن طريق إيجاد اختبار الواقع ، الذى فشل
فى الحلم - حتماً - بسبب ظروف حالة النوم . والأخطار التى تتهدد
الأنا والتى يتعين عليه مقاومتها فى محيط من القوى الآلية الطاغية ، تأتى
أولاً من الواقع الخارجى ، ولكنها لا تقتصر عليه . فالهو ذاته مصدر
أخطار مماثلة ، ومرجع هذا فى الواقع إلى سببين :

أولاً : أنه يمكن لقوة غريزية بالغة العنف أن تلحق بالأنا من الأذى
ما يلحقه به «منبه» بالغ القوة من العالم الخارجى . صحيح أن هذه القوة
البالغة لا يمكن أن تدمره ؛ وإن كان يمكن أن تدمر تنظيمه الدينامى
الخاص به ، وأن تحيل الأنا ثانية إلى جزء من الهو .

وثانيًا : أن الأنا تعلم بالتجربة أن إشباع مطلب غريزي محتمل في حد ذاته قد يسبب أخطارًا في العالم الخارجى ، بحيث يصبح أى مطلب غريزي من هذا النوع خطرًا في حد ذاته ، وبذا يحارب الأنا فى جبهتين : فعليه أن يدافع عن وجوده ضد عالم خارجى يهدده بالإفناء ، وضد عالم داخلى يرهقه بالمطالب . ويستخدم الأنا طرقًا متماثلة فى وقاية ذاته من عدويه ، وإن كان دفاعه ضد العدو الداخلى غير كافٍ خاصة . ونظرًا لوحدة الأصل واشتراكهما الوثيق فى الحياة فيما بعد ، فمن العسير الهرب من الأخطار الداخلية . فهى تظل تتهدده ، حتى وإن أمكن تقييدها وقتًا ما .

رأينا كيف أن الأنا الضعيف ناقص النمو فى عهد الطفولة الأول يصاب بأضرار مستديمة بما يبذل من مجهود لدرء الأخطار الخاصة بهذا العهد عن الحياة . ويحتمى الطفل من الأخطار التى تتهدده فى العالم الخارجى بما يلقى من والديه من رعاية ، ويدفع ثمن هذه الطمأنينة قلقًا من فقدان الحب يسلمه إلى العجز تجاه أخطار العالم الخارجى . ويؤثر هذا العامل تأثيرًا حاسمًا فى نتيجة الصراع حين يدلف الصبى إلى الموقف الأوديبى ، حيث يستحوذ عليه تهديد الخصاء الذى ينال من نرجسته بعد أن يكون قد تعزز بمصادر سالفة . ويتضافر هذان التأثيران : تأثير الخطر الواقع المباشر ، وتأثير الخطر الذى يرجع أساسه إلى تاريخ السلالة الإنسانية ويُدخّر فى الذاكرة ، فيبعثان الطفل على اتخاذ إجراءات دفاعية

(أنواع الكبت) . ولكن هذا الدفاع ، وإن يكن ناجعاً بصورة مؤقتة ، يسفر عن نقصه حين يؤدي تنشيط الحياة الجنسية إلى زيادة المطالب الغريزية التى سبق نبذها . ومن ثمة فإن وجهة النظر البيولوجية لا بد أن تفسر أن الأنا يفشل فى مهمة السيطرة على تهيجات العهد الأول للجنسية بينما عدم نضجه يجعله عاجزاً عن ذلك . ونحن نرى أن الشق الجوهري للأعصبة ينحصر فى هذا التأخر فى نمو الأنا بالنسبة إلى نمو الليبدو ، وأن من المحال تجنب استنتاج أن من الممكن تفادى الأعصبة لو جنب الأنا الطفلى هذه المهمة ، أى لو تركت الجنسية الطفلية تزدهر بلا عائق ، كما هو الحال لدى كثير من الشعوب البدائية . وقد تكون أصول الاختلالات العصابية أعقد مما أوضحناه هنا ؛ إذ ذاك نكون قد أبررنا على الأقل جزءاً جوهرياً من هذه الأصول المعقدة . وعلينا ألا ننسى كذلك التأثيرات السلبية الكامنة فى أعماق الهوى ، على شكل لم نتوصل بعد إلى معرفته ، وتأثيرها فى الأنا فى بواكير الطفولة أقوى منه فى أى عهد آخر من الحياة . ومن ناحية أخرى فإننا نحدس أن هذا الحجز المبكر للغريزة الجنسية ، وهذا التحيز من جانب الأنا الفتى للعالم الخارجى على حساب العالم الداخلى ، وهو تحيز يصدر عن التحريم المفروض على الجنسية الطفلية ، لا بد وأن يؤثر فى القابلية الحضارية اللاحقة للفرد . فالمطالب الغريزية التى تحرم من الإشباع المباشر ، حتى تجبر على سلوك طرق أخرى تجد فيها إشباعاً بديلاً ، يمكن أن تفقد طابعها الجنسى إبان هذا المنعطف وتتخلص من الروابط التى تربطها بالاهداف

الجنسية الأولى . ونخلص من ذلك إلى أن كثيراً من تراثنا الحضارى الذى نعتز به قام على حساب الجنسية ، نتيجة لتقييد قوى الغرائز الجنسية.

وما فتئنا نردد بلا ونى أن الأنا يدين بأصله كما يدين بأهم خصائصه المكتسبة لعلاقته بالعالم الخارجى الواقعى . فمن اليسير علينا إذن أن نسلم بأن الحالات المرضية للأنا ، التى غالباً ما يزيد فيها اقتراباً من الهو ، تقوم على تعطيل هذه العلاقة بالعالم الخارجى أو انقطاعها . وهناك واقعة تؤيد ذلك : تعلمنا الخبرة الإكلينيكية أن هناك باعثن يؤديان إلى ظهور الذهان : فإما أن يكون الواقع قد غداً أمراً مؤلماً لا يطاق ، أو أن تكون الحوافز قد عززت تعزيزاً هائلاً ، وهو أمر لا بد أن يحدث فى الأنا آثاراً مماثلة ، لوجود المطالب المتنافسة للهو والعالم الخارجى . وكان يمكن أن تكون مشكلة الذهان بسيطة واضحة لو كان الأنا قد انقطعت صلته بالواقع تمام الانقطاع ، ولكن هذا أمر لا يحدث إلا نادراً ، بل ويحتمل ألا يحدث أبداً . وحتى بالنسبة إلى الأحوال البعيدة عن واقع العالم الخارجى بُعد الأحوال الهلوسية المختلطة (Amentia) ، فإن المرضى يقررون ، عند شفائهم ، أنه فى ركن قصى من عقولهم ، على حد تعبيرهم ، كان يقبع شخص سوى حريص على الاختباء يدع العملية المرضية بأمرها تمضى أمام ناظرية ، وكأنه مشاهد محايد . ولست أدري إن كان يمكن أن نفترض أن الأمور تمضى دائماً

على هذا النحو وإن كنت أستطيع الإدلاء بمعلومات مماثلة بشأن ذهانات أخرى أقل خطورة . وأذكر حالة پارانويا مزمنة ، كان المريض فيها - عقب كل نوبة من الغيرة - يدلى بحلم يزود المحلل بتصور صحيح للموضوع خال تمامًا من شوائب الهذيان . وهكذا كان يتجلى تباين شائق: فبينما تكشف لنا أحلام العصابى عادة غيرةً غريبةً لا يشعر بها المريض فى حياة اليقظة ، نجد لدى الذهاني أن الهذاء فى حال اليقظة يصححه حلم . وقد يكون بوسعنا أن نقرر أن ما يحدث فى كل الحالات المماثلة إنما هو انفصام نفسى . فهناك موقفان بدلاً من موقف نفسى واحد ، أحدهما ، وهو الموقف السوى ، يضع الواقع موضع الاعتبار ، فى حين يعمل الثانى ، بتأثير الحوافز ، على فصل الأنا عن الواقع . ويوجد الاثنان جنباً إلى جنب . وتتوقف النتيجة على قواهما النسبية . فإن كانت الغلبة للأخير ، تحقق شرط الدهان . أما إن انعكست الآية ، حدث الشفاء الظاهر من المرض الهذائى . والواقع أنه قفل راجعاً إلى اللاشعور . كما أن هناك مشاهدات أخرى عديدة تحملنا على التقرير بأن الهذاء كان موجوداً قبل انطلاقه الظاهر بزمان طويل .

وما كنا لنولى وجهة النظر التى تسلم بانفصام الأنا فى كل ذهان كما هذا الاهتمام ، لو لم تجد ما يؤيدها فى حالات أخرى أقرب إلى الأعصبة، وأخيراً فى الأعصبة ذاتها . وقد اقتنعت أولاً بذلك فيما يتعلق بحالات الفثيشية . فهذه الحالة الشاذة التى يمكن إدراجها فى عداد

الانحرافات ، تقوم - كما هو معروف - على كون المريض ، وهو رجل في كل الحالات تقريباً ، لا يعترف بعطل المرأة عن القضيب ، وهو دليل بالغ الألم لديه على إمكان إخصائه هو . لذلك فهو ينكر ما يشعر به إدراكه الحسى ذاته من انعدام القضيب من الأعضاء التناسلية الأنثوية ، ويتشبث بنقيض هذا القول . ولكن الإدراك الحسى ، وإن أنكره المريض ، لا يظل منعدم التأثير ، وهكذا لا يجرؤ المريض على ادعاء أنه قد رأى قضيباً بالفعل إلا أنه يختار شيئاً آخر جزءاً من الجسم أو موضوعاً ينسب إليه دور القضيب ولا يستطيع التخلي عنه ، وهو فى العادة شىء رآه المريض الفتيشى حينما كان يشاهد الأعضاء التناسلية الأنثوية بالفعل ، أو هو بديل رمزى للقضيب . ومع ذلك فليس من الصواب تسمية هذه العملية فى تكوين الفتيش انفصاماً فى الأنا ؛ بل هى توفيق يتم بمعونة النقل كما هو معروف لنا من الحلم . ولكن ملاحظتنا لا تنتهى عند هذا الحد . فإن خلق الفتيش أساسه القضاء على احتمال الخصاء بحيث يستطيع المرء الإفلات من قلق الخصاء . فإن كان للمرأة قضيب ، مثل كل كائن حى ، فلا حاجة إلى أن يفرق المرء من أن يسلب قضيبه . ومع ذلك فإننا نلمس لدى بعض المرضى الفتيشيين خوفاً من الخصاء يماثل خوف غير الفتيشيين ، وهم يستجيبون له على نفس النحو . ومن ثمة فإن سلوكهم يعبر عن رأيين متناقضين . فهم من ناحية ينكرون الوقائع التى يمدهم بها إدراكهم الحسى وهى أنهم لم يروا القضيب فى أعضاء المرأة التناسلية ، ومن ناحية أخرى يعترفون بخلو

المرأة من القضيب ويستخلصون منه النتائج المترتبة عليه . ويبقى هذان الموقفان طوال الحياة جنباً إلى جنب ، دون أن يؤثر أحدهما في الآخر . وهذا ما يكون تسميته بانفصام الأنا . وهذا الوضع يسمح لنا كذلك بتفهم كيف أن الفتيشية غالباً ما تظل ناقصة التكوين . فهي لا تفرض اختياراً قاصراً على موضوع بعينه ، بل تترك مكاناً - بقدر متفاوت - لمسلك جنسى سوى ، بل قد تؤدي أحياناً دوراً متواضعاً أو لا نكاد نستبينه . ومن ثمة فإن فصل الأنا عن واقع العالم الخارجى لا ينجح ألبتة تمام النجاح لدى الفتيشية .

ولا يعتقدُ امرؤ أن الفتيشية حالة استثنائية من انفصام الأنا ؛ بل كل ما هنالك أنها موضوع دراسة لهذه الظاهرة دراسة ملائمة على وجه التخصيص . فلنعد إلى تلك الواقعة التى أشرنا إليها ، وهى أن الأنا الطفلى ، مدفوعاً بتأثير العالم الواقعى ، يتخلص من المطالب الغريزية المرهوبة ، بما يسمى بعمليات الكبت . ولنكملها الآن بإضافة واقعة أخرى: هى أن الأنا إبان نفس العهد من الحياة ، يلقى نفسه مضطراً فى كثير من الحالات إلى مغالبة بعض المطالب الأليمة للعالم الخارجى ، مستعيناً فى ذلك بإنكار الإدراكات الحسية التى تظهره على مطالب الواقع . وحالات الإنكار هذه كثيرة الحدوث ، ولا تقتصر على الفتيشيين وحدهم . فكلما أتاحت لنا فرصة دراستها ، تكشف لنا باعتبارها نصف إجراءات ومحاولات ناقصة للانفصال عن الواقع . والإقرار يكمل الرفض

دائمًا ، فينشأ موقفان متعارضان مستقل أحدهما عن الآخر ، مما يفضى إلى انفصام الأنا ، وتتوقف النتيجة ثانية على مدى شدة كل من الموقفين .

والوقائع الخاصة بانفصام الأنا التى وصفناها هنا ليست من الجدة والخرابة بالقدر الذى يمكن أن تظهر به لأول وهلة . فإن السمة العامة للأعصبة هى قيام سلوك معين على موقفين مختلفين فى الحياة النفسية لدى الفرد ، موقفين متعارضين ومستقلين أحدهما عن الآخر . وإنما يكون أحد الموقفين إذ ذاك مرده إلى الأنا والموقف المضاد مرده إلى الهو بوصفه مكبوتًا . والفصل بين الحالتين فصل طبوغرافى أو بنائى فى جوهره ، وليس من اليسير دائمًا القطع بغلبة أى من الموقفين فى كل حالة فردية . ومع ذلك فإن بينهما طابعًا مشتركًا هامًا يتبين مما يلى :

فأيا كان الموضوع الذى يوجه إليه الأنا جهده الدفاعى سواء كان جزءًا أنكره من العالم الخارجى الفعلى أو مطلبًا غريزيًا استبعده فى العالم الداخلى ، فالنتيجة لا تكون كاملة ثابتة ألبة ، إذ يظهر دائمًا الموقفان المتعارضان ويؤديان كلاهما - بما فيهما الموقف الخاضع للأضعف - إلى خلق صعوبات نفسية . ولنضيف مرة أخرى أن إدراكنا الحسى الشعورى لا يسمح لنا بأن نعرف إلا جزءًا ضئيلًا من هذه العمليات كلها

الفصل التاسع .

العالم الداخلى

لا سبيل إلى عرض معارف معقدة متجاوزة إلا بوصفها على التوالى ،
لذلك يؤخذ على عرضنا فى المحل الأول تبسيطه المفروض فهو على وجه
العموم فى حاجة إلى استكمال حتى يستقيم .

إن تصور الأنا وسيطاً بين الهو والعالم الخارجى ، بحيث يتقبل
مطالب الأول الغريزية ويسعى لإشباعها ، ويجمع الإدراكات الحسية من
الأنخيرة ، ويستغلها كذكريات ، ويلجأ إلى حفظ الذات حيال المطالب
المبالغ فيها من كلا الجانبين فيقاومها ، وبذلك يخضع الأنا - فى كل ما
يتخذ من قرارات - لما يمليه عليه مبدأ اللذة المعدل ، هذا التصور لا
يصدق إلا على الأنا حتى نهاية عهد الطفولة الأول (حوالى الخمس
سنوات) . إذ ذاك يحدث تغير هام : إذ يفصل جزء من العالم الخارجى
ويصبح على الأقل موضوعاً جزئياً . ويندمج فى الأنا (عن طريق التوحد)
- أى يصبح جزءاً مكوناً للعالم الداخلى . وتستمر هذه المنظمة النفسية
الجديدة فى القيام بالوظائف التى كان يؤديها من قبل أفراد معينون فى
العالم الخارجى؛ فهو يراقب الأنا ، ويصدر إليه الأوامر ، ويقوم

اعوجاجه ، ويتهدده بالقصاص ، تمامًا كالوالدين اللذين حل محلهما .
هذه المنظمة نسميها الآن الأعلى ونشعر بها وهى تؤدى وظائفها القضائية ،
بمثابتها ضميرنا . ومما يسترعى النظر أن الآن الأعلى يظهر فى أغلب
الأحيان قسوة لا نجد أصلًا لها عند الوالدين فى الواقع . فهو لا يكتفى
بمحاسبة الآن على أفعاله فحسب ، بل يحاسبه أيضًا على خواطره
ومقاصده التى لم تنفذ والتى يبدو أنه على علم بها . ولنذكر أيضًا أن
بطل أسطورة أوديب استشعر الإثم على ما اقترف ، وأنه عاقب نفسه ،
وإن كان يجب تبرئته فى نظرنا وفى نظره لما قضت به النبوءة . والواقع
أن الآن الأعلى وريث عقدة أوديب وهو يقوم أولاً بانتهائها . لذلك فإن
قسوته المفرطة لا تحاكي نموذجًا واقعيًا ولكنها تقابل قوة الدفاع الموجه
ضد إغراء عقدة أوديب . ولا شك أن الفلاسفة والمؤمنين قد لمسوا هذا
المعنى عندما قرروا أن التربية لا يمكن أن تغرس فى الناس حاسة خلقية
ولا يمكن أن تكسبهم إياها الحياة فى مجتمع ، ولكنها تنبع فيهم من
مصدر أعلى .

ويصعب التمييز بين مظاهر الآن والآن الأعلى ما دام يعملان فى
توافق تام ، ولكن التوترات والخلافات بينهما يمكن ملاحظتها بوضوح
تام . فإن عذاب وخز الضمير يقابله لدى الطفل قلقه من فقدان الحب ،
وهو قلق تقوم المنظمة الخلقية مقامه .

ومن ناحية أخرى ، عندما يقاوم الآن بنجاح إغراء بإتيان ما يأنف
منه الآن الأعلى ، فإنه يشعر بزيادة اعتباره لذاته ، ويعظم اعتزازه بنفسه ،
وكأنه كسب مكسبًا قيمًا . وعلى هذا النحو يمضى الآن الأعلى فى القيام

بدور العالم الخارجى تجاه الأنا ، وإن كان قد أصبح جزءاً من العالم الداخلى . فهو يمثل طوال عهود الحياة اللاحقة ، أثر عهد طفولة الفرد ، وما تلقاه من رعاية وتربية واعتماد علي الوالدين ، تلك الطفولة التى تمتد عند بنى الإنسان فى الحياة العائلية المشتركة . والعامل الفعال فى كل هذا ، لا يقتصر على صفات الآباء الذاتية ، بل يشمل كل ما أثر فيهم ، والميول والمطالب الخاصة بالظروف الاجتماعية التى يعيشون فيها ، كما يشمل مميزات عنصرهم وتقاليده . ويمكن لأولئك الذين يميلون إلى التعميمات والتميزات القاطعة أن يقولوا إن العالم الخارجى الذى يلقى الفرد نفسه بين ظهرانيه بعد انفصاله عن والديه ، يمثل قوة الحاضر ، وأن الهو عنده بميوله الموروثة يمثل الماضى العضوى . وأن الأنا الأعلى الذى يلحق بهما فيما بعد يمثل قبل كل شئ الماضى الحضارى الذى يتعين على الطفل أن يبعثه وبحياة ثانية أثناء سنى طفولته . ولكن ليس من المحتمل أن تكون هذه التعميمات صادقة صدقاً تاماً . فلا شك أن بعض المكاسب الحضارية قد تركت راسباً فى الهو . ثم إن الكثير مما يأتى به الأنا الأعلى يجد صدى له فى الهو ، وما يحياه الطفل لأول مرة يزداد قوة لأنه ترديد لخبرة سلالية أولى . «وما ورثته عن أسلافك ، اكتسبه كيما يصبح ملكاً لك»^(١) . وبذلك يتخذ «الأنا الأعلى مركزاً وسطاً بين الهو والعالم الخارجى ؛ فهو يجمع فى ذاته بين تأثيرات الحاضر والماضى . وكأننا نعاين فى نشأة الأنا الأعلى نموذجاً من تحول الحاضر إلى الماضى» .

(١) [جوته : فاوست الأول (المترجمان) .

ثبت المصطلحات

ليست الغاية من وضع معجم لمصطلحات التحليل النفسى الواردة فى متن الكتاب مجرد تعريبها والتعريف بها تعريفًا موجزًا لا يتعدى الشرح اللغوى ، وإنما الغاية منه توضيح معانى هذه المصطلحات من حيث هى مفاهيم علمية لها مكانها المحدد فى نطاق نظرية عامة فى الحياة النفسية . فكان لابد إذن من الإحالة المستمرة إلى نصوص فرويد ترجمة وتلخيصًا ، لنقل الفكرة نقلًا مباشرًا فيه تبسيط وإظهار لجوانبها المختلفة ومحلها من فكر فرويد على وجه العموم .

وقد اقتصرنا الإشارة إلى عدد قليل من رواد التحليل النفسى ، جاء ذكرهم تكملة لبعض الخطوط التى رسمها فرويد ، دون الدخول فى التفاصيل أو فيما أدت إليه بعض دعاويه من اختلاف فى رأى بين المحللين أنفسهم . وإن كان ثمة مفهوم مستمد أصلاً من الطب العقلى أو من علم النفس المرضى فقد توخيت إظهار ما أضافه التحليل النفسى إليه من معنى جديد يتمشى والمبادئ العامة المسلم بها . لذلك أصبح من المحتتم التوسع فى شرح كل مفهوم ومراعاة تضاييف المفاهيم وتكاملها بحيث يستشف القارئ من خلالها شيئًا من البناء النظرى العام للتحليل النفسى .

دكتور / سامى محمود على

الإسكندرية فى ٢٦ سبتمبر ١٩٦١

١ - انحرافات Perversionen - Perversions :

الانحراف الجنسي دافع غريزي جزئي - مصدره الليبيدو والعدوان -
يدخل أصلاً في تكوين الفعل الجنسي السوى - الاتصال الجنسي بأحد
أفراد الجنس الآخر وما يصحب ذلك من مقدمات - ولكنه دافع استقل
بذاته وحل محل الفعل الاصلى وأصبح بذلك الوسيلة الوحيدة للإشباع
الجنسى .

ولما كانت هذه الدوافع الجنسية الجزئية - التى ترجع إلى ما قبل
المرحلة التناسلية - هى بعينها أصل الصراع النفسى وموضوع الكبت
العصابى وقوام الأعراض المرضية إذا فشل الكبت ، فإن ثمة علاقة وثيقة
بين الانحرافات الجنسية والأمراض النفسية : « فالمرض النفسى - كما
يقول فرويد - هو الصورة السلبية للانحراف » .

ومن ناحية نظرية الليبيدو ، تدل الانحرافات الجنسية على تغير يطرأ
على السير السوى للنمو الجنسي من حيث الموضوع الجنسي (الشخص
الذى يصدر عنه الجذب الجنسي) ومن حيث الهدف الجنسي (الفعل الذى
ترمى إليه الغريزة) .

Cf. S. Freud. Three Essays on the Theory of
Sexuality. Ch. I. The Sexual Aberrations.

راجع

The Standard Edition of the Complete Psychological
Works of S. Freud.

†Vol. VII. London 1953 .

قارن : كتب منطقة شهوية .

Psychiche Spaltung

Psychic Splitting

انقسام نفسي

Morcellement Psychique

Ichspaltung

Splitting of the Ego

انقسام الـإنا

Morcellement du Moi

يدل مفهوم الانقسام لدى بلويلر E. Bleuler على مميز جوهري من
مميزات مرض الفصام (Schizophrenia)، ويتجلى في الميل إلى الفصل
أو التفرقة أو التقسم أو التجزئة. «فنحن نواجه في كل حالة انقساماً
يتفاوت تحديداً في الوظائف النفسية. فإن اشتد المرض فقدت الشخصية
وحدتها؛ ففي الأوقات المختلفة تبدو المركبات النفسية المختلفة وكأنها
تمثل الشخصية بأسرها. ويبدو أن تكامل مختلف المركبات والدوافع غير
كاف بل وغير موجود. فالمركبات النفسية لا تتجمع في مزيج من الدوافع

ذى نتائج موحدة كما يحدث لدى الشخص السوى . وإنما نجد أن مجموعة من المركبات تسيطر على الشخصية وقتاً ما بينهما تصبح مجموعات أخرى من الأفكار أو الدوافع «فى حالة انفصام» كأنها فقدت قوتها فقدًا جزئيًا أو كليًا . وغالبًا ما لا تتكون الأفكار إلا تكوينًا جزئيًا ، وتترابط أجزاء من الأفكار على نحو غير منطقي لتكوين فكرة جديدة ، وتفقد المفاهيم كمالها ويبدو وكأنها تخلت عن أحد مركباتها الأساسية أو أكثر من مركب» .

E. Bleuler: Dementia Praecox or the Groups of Schizophrenias, p. 9. Intern Univers. Press, N. Y. 1955

وهذا المفهوم الوصفى يسيغ عليه فرويد معنى ديناميًا إذ يتناوله من زاوية الصراع النفسى . يقول فرويد : «مقاله «انفصام الأنا فى العملية الدفاعية» : «فلنفترض إذن أن الأنا لدى الطفل وقع تحت وطأة مطلب غريزى قوى تعود إشباعه ولكنه فزع فجأة على أثر خبرة علمته أن استمرار الإشباع يؤدى إلى خطر لا يطاق . فعليه الآن أن يقرر إما أن يعترف بالخطر الحقيقى فيستسلم له وينزل عن الإشباع الغريزى أو ينكر الواقع ويقنع نفسه بأنه ليس ثمة داعى إلى الخوف كيما يتمكن من استبقاء الإشباع . فثمة إذن صراع بين مطلب الغريزة ومطلب الواقع . . ولكن الواقع أن الطفل لا يأخذ بأى من السبيلين أو هو بالأحرى يأخذ بهما فى آن واحد . . وتبقى الاستجابتان المتباينتان للصراع بوصفهما النقطة المركزية لانقسام الأنا . وتبدو العملية بأسرها لنا غريبة لأننا نسلم

بالطبيعة التركيبية لأفعال الأنا . ولكن من الجلى أننا على خطأ ههنا .
فالوظيفة التركيبية للأنا ، رغم ما لها من أهمية بالغة ، تخضع لشروط
معينة وتعرض لسلسلة كاملة من الاضطرابات .

S. Freud : Splitting of the Ego in the Defensive Process. Collected Papers, V. Hogarth Press, London 1950.

٣ - إيهاء Suggestion :

من أكثر المفهومات شيوعاً فى تاريخ علم النفس والطب النفسى وأقلها تحديداً فى الآن ذاته . ويقال عادة عن شخص أنه خضع لإيهاء إن خطرت له فكرة أو اعتنق عقيدة أو شعر بميل دون أن يدرك أن الفكرة أو العقيدة أو الميل يصدر فى الحقيقة عن فعل خارجى مباشر أو عن إرادة مستقلة عنه .

ولقد لعب مفهوم الإيهاء دوراً هاماً فى تكوين مذاهب علم النفس الاجتماعى ونظريات العلاج النفسى فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين : فمن ناحية نجد أن فكرة الإيهاء هى الدعامة التى يقيم عليها جوستاف لوبون - مثلاً - وصفه لظواهر الجمهرة وسيكولوجية الظواهر النفسية الجمعية (راجع : G. Le Bon, *Psychologie des Foules*, Paris : 895). ويشترك معه تاردفى جعله الإيهاء أصلاً للمحاكاة التى يرجع إليها تكون الظواهر الجمعية (راجع : G. Trade : *Les Lois de*

(*L'imitation* : I 850) . ومن ناحية أخرى فقد أسس ليوبو وبرنهايم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ما يعرف باسم مدرسة نانسى Ecole de Nancy التى استخدمت التنويم المغناطيسى فى علاج الأمراض النفسية (ولاسيما الهستيريا) ، وكان المعروف أن التنويم المغناطيسى نوع من الإيحاء المتعمد (راجع : Bernheim : *De la Suggestion et de ses applications á la Thérapeutique*. 1886).

وقبل أن يكتشف فرويد طريقة التداعى المطلق ، استخدم الإيحاء على نحو ما كانت تستخدمه مدرسة نانسى بعد أن تبين له أن التنويم المغناطيسى لا يمكن تطبيقه على الكثير من المرضى النفسيين . (قارن القاعدة الأساسية) .

وكان فرويد من أوائل من تنبه إلى الغموض الذى يكتنف ظواهر الإيحاء مبيناً أن مفهوم الإيحاء لا يفسر الظواهر النفسية ولا الاجتماعية لأنه هو نفسه مفتقر إلى تفسير . ويعرض فرويد نظريته فى الروابط الليبيدية ويفسر على ضوئها العلاقة النكوصية التى تنشأ بين فردين يؤدى أحدهما دور الأنا الأعلى بالنسبة إلى الآخر والتى تسمح بظهور ظاهرة الإيحاء .

راجع :

S. Freud : *Group Psychology and the Analysis of the Ego*, Hogarth Press London 1949 .

شيدلنجر : التحليل النفسى والسلوك الجماعى ترجمة الدكتور سامى
محمود على ، المعارف القاهرة ١٩٥٩ .

G. Zilborg : *A History of Medical Psychology* p. 367.
Norton, N. Y., 1941.

٤ - ايروس Eros :

Destruktiontrieb order Todestrieb

Death Instinct

غريزة التدمير أو غريزة الموت

Instinct de mort

نظرية فرويد فى الغرائز تفترض ثنائيتها . وقد بدأ فرويد بوضع
نظرية سيكولوجية فى الغرائز أساسها مكتشفات التحليل النفسى ،
والغاية منها توضيح مغزى هذه المكتشفات من حيث الدوافع والميول
العامة . فافترض بادية ذى بدء وجود دوافع غريزية متعارضة هى دوافع
الأنثا والدوافع الجنسية ، تستهدف الأولى حفظ الفرد والثانية حفظ النوع
 . وربط فرويد بين هذين الصنفين من الغرائز وفئتين متعارضتين من
الأمراض النفسية : فئمة من جهة الأمراض العصابية النرجسية (أو
الأمراض الذهانية) ومردھا إلى غلبة دوافع حفظ الذات ، ومن جهة أخرى
فئمة أعصبة التحويل (الهيسترىا والوسواس) وتتميز بغلبة الدوافع الجنسية
 . ويجب التنبيه إننا حيال «فرض عملى لا نأخذ به إلا بقدر ما نتبين

جدواه، وإبدال فرض آخر به لا يغير كثيراً ما نقوم به من وصف وتصنيف».

S. Freud, Instincts and their vicissitudes, *Collected Papers*, IV, Hogarth Press, London 1950.

وفى كتاب «ما وراء مبدأ اللذة» عدل فرويد هذه النظرية بناء على ما شاهده من ظواهر مرضية تتسم بوجود دوافع غريزية غير قابلة للتعديل ، وإنما تتكرر فى حياة الفرد تكراراً آلياً أعمى ، وهى معارضة لدوافع الحياة معارضة صريحة . لذلك أعاد تصنيف الغرائز فأدرج دوافع حفظ الذات ودوافع حفظ الجنس تحت غريزة الحياة أو الإيروس ، ووضع فى مقابلها ما أسماه غريزة التدمير أو الموت .

S. Freud : Au delà du principe de plaisir. *Essais de psychanalyse*, Payot, Paris 1948.

راجع

٥ - بارانويا Paranoia :

مرض عقلى يتميز بوجود نسق منظم من الأفكار الهاذية وسلسلة منطقية من النتائج المستنبطة من مقدمة خاطئة خطأ مطلقاً يؤمن بها المريض إيماناً مطلقاً لا يمكن رزعته أو تعديله أو التشكيك فيه . ومن حيث المضمون نجد أن فكرة الاضطهاد والريبة من نوايا الخير وأفعالهم

تقوم بدور رئيسى فى هذا المرض ، أما من حيث الشكل فإن المر يستخدم عملية الإسقاط استخدامًا متصلًا فينسب إلى الغير أفكاره ومشاعر ، ولا يفتأ يؤول حركات الآخرين وسكناتهم بما يتفق واعتقاده المرضى بحيث يتحول الصراع الداخلى - فى النهاية - إلى صراع خارجى بين المريض والآخرين ، منقطع الصلة - بالنسبة للخبرة الشعورية للمريض - بأصله الذاتى .

وقد بين فرويد - فى دراسته لحالة من حالات البارانويا هى حالة شريبر بين - أهمية الجنسية المثلية والموقف الأوديبى السلبى فى نشأة هذيان الاضطهاد . فثمة دافع جنسى للحلول محل الأم بالنسبة للأب ، وهو دافع مرفوض كل الرفض ولا يمكن قبوله شعوريًا ، مما يحدو بالآنا إلى مواجهته للتخلص منه . وهذه المواجهة تتم عن طريق النكوص إلى المرحلة النرجسية من مراحل الليبدو ثم تكوين هذيان الاضطهاد وإسقاط عناصر هذا الهذيان على العالم الخارجى وفقًا للمعادلة الآتية : «أنا (رجل) أحبه (رجل)» (حب جنسى مثلى) ، تتحول - بفضل ثنائية العواطف - - إلى «أنا أكرهه» ، ثم - بالإسقاط - «هو يكرهنى (يضطهدنى)» وأخيرًا : - «أنا أكرهه لأنه يضطهدنى» . والملاحظ أن الشخص الذى يركز المريض عليه المشاعر العدوانية هو نفس الشخص الذى كان فيما قبل موضوعًا لمشاعر الحب وهو فى الحالين بديلًا للأب .

راجع : S. Freud : The Schreber Case. *Collected Papers* 111.

Libidofixierung

Libidofixation : تثبت لبدى

Fixation libidinale

فى التحليل النفسى يدل على تثبيت الليبدو بشخص أو موضوع أو مرحلة من مراحل التطور النفسى والجنسى ، مما يقلل فيما بعد مقدار الليبدو المهيأ للتوافق مع الواقع ، ويساعد على حدوث نكوص إلى إحدى التى ثبت عليها الليبدو إذا ما اعترض طريق الإشباع الحالى عقبات عجز الفرد عن تذليلها وبهذا المعنى يكون التثبيت أساساً لتعرض الفرد - فيما بعد - للإصابة بالمرض النفسى أو العقلى . ويختلف نوع المرض باختلاف المرحلة التى توقف عدها النمو النفسى والجنسى أى باختلاف نقط التثبيت الليبدى .

راجع :

S. Freud : Trois essais sur la Théorie de la Sexualité, p. 183 et suiv.

قارن : نكوص : منطقة شهوية .

Übertragung

Transference

Transfert.

٧ - تحويل :

فى علم النفس العام ، وفى نظرية التعلم بالذات ، يستخدم مفهوم التحويل للدلالة على «نقل فعل أو نمط من السلوك من عمل إلى آخر» (Woodworth) بمعنى إن اكتساب خبرة معينة يؤدي إلى رفع مستوى الإنجاز للفرد فى عمل مماثل ، أو إلى خفض مستواه إن كان العمل الجديد مغايراً للعمل الأصلي كل المغايرة . وفى الحالة الأولى يقال إن ثمة تحويلاً موجباً (نتيجته تيسير عمل الفرد) وفى الحالة الثانية تحويل سلبى (نتيجته إعاقة نشاط الفرد) . وبهذه المثابة يعتمد مفهوم التحويل على نظرية «العناصر الواحدة» (Identical Elements) ونصها - كما صاغها ثورندايك (Thorndike) : «إن التغير الذى يطرأ على وظيفة ما لا يغير وظيفة أخرى إلا بمقدار ما يكون للوظيفتين من عناصر واحدة» .

أما فى التحليل النفسى فيدل مفهوم التحويل على موقف انفعالى معقد يقفه المريض تلقائياً من المحلل النفسى ويتميز أحياناً بغلبة مشاعر الحب أو مشاعر العدوان وإن كان يتألف غالباً من مزيج من العنصرين (التحويل الموجب ، التحويل السالب ، التحويل المزدوج الميل) . وهذه المشاعر لا تنطبق على الموقف الحاضر وإنما هى مواقف لا شعورية طفلية ، يحياها المريض ثانية فى الموقف العلاجى ويخلع فيها على

المحلل شخصية الأفراد المسئولين عن نشأة هذه المشاعر وعن تكوين شخصية المريض تكوينًا يتسم بالصراع النفسى والعجز عن النمو النفسى الكامل (الوالدان ومن حل محلهما) .

ففي التحويل - كما يقول فنيكل - «يسىء الفرد فهم الحاضر برده إلى الماضى . وإذ ذاك لا يستعيد الفرد ذكرى الماضى وإنما يسعى ، عرضًا عن ذلك ، أن يعيش الماضى مرة أخرى وأن يعيشه أفضل مما فعل فى طفولته وهو فى كل ذلك لا يدرك طبيعة ما يفعل» والتحويل بهذا المعنى يعتمد على ما سماه فرويد «يقهر التكرار» - Repetition- Compulsion .

والتحويل هو الظاهرة الأساسية فى عملية العلاج بالتحليل النفسى لأن المريض يحيا فى المواقف مشكلته الجوهرية بكل دقائقها الانفعالية ، ومن ثمة يتمكن من حلها حلاً موفقاً عن طريق مراجعة تاريخه المنسى كما يتكشف من خلال موقف التحليل .

راجع :

Woodworth : *Psychologie experimentale*, Paris 1949

O. Fenichel : *Psycho analytic theory of Neuroses* p. 29-30.

Fantasiën

Fantasies

Fantaisies, fantasmes

٨ - تخيلات :

نتاج الخيال من حلم يقظة وأخيلة لا شعورية . فمن ناحية يميز التحليل النفسى بين الأخيلة اللاشعورية الحقبة التى تلقاها لدى الطفل الصغير الذى لم يتكون الأنا لديه بعد . وتتميز هذه التخيلات بغلبة الدوافع العدوانية الفمسية والشرجية وبسيطرة نوع بدائى من العلاقات بالموضوعات الطيبة والشريرة . ومن ناحية أخرى ، فهناك الأخيلة الشعورية Fantases التى تتخذ شكل أحلام اليقظة وتتصف بصفات مستقلة عن صفات التخيلات اللاشعورية ، فطابعها الشعورى دليل على وجود أنا على قدر كافي من النضج يسمح بظهورها والسيطرة عليها ويحصل بها على إشباع معين . فالتخيلات الشعورية بهذه المثابة توفيق ناجح بين مبدأ الواقع ومبدأ اللذة .

والتحليل النفسى يدرس التخيلات من حيث إنها تعبير عن الدوافع اللاشعورية وإفصاح عن حيل الدفاع التى يستعين بها الأنا فى السيطرة على هذه الدوافع ومواجهتها بمقتضيات الواقع . وقد درست أنا فرويد التخيلات من هذه الزاوية تحت عنوان : «النفس بالتخيلات» .

راجع :

Anna Freud : *Le Moi et les mécanismes de défense*. P. U. F. Paris 1949.

S. Lebovici & R. Diatkine : *Etude des fantasmes chez l'enfant* *Revue Française de psychanal.* Jan. Paris 1954.

Triehsublimierung

Sublimation

٩ - التسامى :

يجب التمييز بادية ذى بدء بين التسامى والكبت . ففي الكبت يستبعد الأنا الدافع الغرى عن الشعور استبعاداً تاماً مستعيناً بحيلة أو أكثر من حيل الدفاع ، بينما فى التسامى يتقبل الأنا الدافع الغرى ولكنه يحول طاقته من موضوعه الأصى إلى موضوع بديل ذى قيمة ثقافية واجتماعية . وتنصب هذه العملية أولاً وبالذات - إن لم توجد فى الشخص أعراض عصابية أو انحرافات جنسية - على الدوافع الجنسية المميزة لمراحل النمو المبكرة السابقة على المرحلة التناسلية . يقول فرويد : «إن المنبهات القوية الصادرة عن المصادر الجنسية المختلفة تنصرف وتستخدم فى ميادين أخرى بحيث تؤدي الميول التى كانت خطرة فى البداية إلى زيادة القدرات والنشاط النفسى زيادة ملحوظة . تلك إحدى مصادر الإنتاج الفنى . وإن تحليل شخصية الأفراد ذوى المواهب الفنية ليدلنا على العلاقات المتغيرة

القائمة بين الخلق الفنى والانحراف والعصاب ، بقدر ما كان التسامى كاملاً أم ناقصاً . . . وإن الجانب الأكبر لما نسميه «الطبع» مركب من مادة المنبهات الجنسية ومؤلف من ميول ثبتت منذ الطفولة أو إكتسبت عن طريق التسمى أبنية الغاية منها كبت الاتجاهات المنحرفة التى استحال استخدامها»

راجع :

S. Freud : *Trois essais sur la théorie de la sexualité*, p. 177-8.

Verdichtung

١٠ - تكثيف :

Condensation

عملية رمزية يتاح بها لمضمون ظاهرى واحد التعبير عن عدة مضمونات كامنة كما هو الشأن فى الأحلام والأعراض العصابية . ويميز فرويد - بصدد نظريته فى الأحلام - بين نوعين من التكثيف : الصور المزيجية والأشخاص الجمعية . مثال على النوع الأول : «إن الشخص الرئيسى فى محتوى الحلم هو مريضتى أرميا التى تظهر فى الحلم بالملامح التى أعرفها لها فى حياة اليقظة والتى تمثل بذلك شخصها ذاته . ولكن الوضع الذى أفحصها فيه بجانب النافذة كان مستخدماً من ذكرى شخص آخر وأعنى به تلك السيدة التى كنت أود استبدالها بمريضتى - كما تبين من أفكار الحلم . وأرأها من حيث ما يظهر عندها من غشاء

دفترى يذكرنى بقلقى من أجل ابنتى الكبرى تمثل هذه الابنة ، وهذه بنوبتها تخفى - بجامع الاشتراك في الاسم - شخص المريضة التي ماتت من جراء التسمم» . ومثال على النوع الثانى : «وهناك طريقة أخرى أستطيع بواسطتها أن أركب شخصاً جمعياً من أجل أغراض التكثيف الحلمى وذلك حين أمزج الملامح الحقيقية لشخصين أو أكثر فى صورة موحدة : عل هذا النحو ركب شخص الدكتور م. فى حلم أرما ، فهو يحمل اسم الدكتور م. ويتحدث مثله ويعمل مثله ولكن خصائصه الجسمية ونوع عرضه كانت لشخص آخر هو أخى» .

راجع : سيجموند فرويد : تفسير الأحلام ص ٣٠٦ . ترجمة مصطفى صفوان . دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ .

Identifizierung

١١- توحيد :

Identification

من المفاهيم الأساسية فى تفسير التحليل النفسى نشأة الشخصية وتكونها . ولحد هذا المفهوم يجب أن نميز أولاً بين المحاكاة والتوحيد . فالمحاكاة عملية شعورية قصدية يضع بها فرد نفسه مكان الآخر وضعاً مؤقتاً - فيأتى بأفعاله ويردد أقواله - دون أن ينتج عن ذلك تغيير جوهري فى شخصيته . وعلى الضد فإن التوحيد عملية لا شعورية بعيدة المدى نتائجها ثابتة ويكتسب بها الشخص خصائص شخص آخر تربطه به روابط انفعالية قوية . ويميز التحليل النفسى بين نوعين من التوحيد :

التوحد الأول الذى يحدث فى الأشهر والسنوات الأولى من مراحل نمو الطفل وبه يصبح الطفل ما هو بتوحده بوالديه ، أى أن التوحد الأولى يحدد للطفل أمنيته (ولا سيما الأنا الأعلى لديه) ، والتوحد الثانوى الذى يحدث فيما بعد ويكون الدافع إليه عادة تجنب موقف مؤلم (التوحد من حيث هو حيلة دفاعية) . ومثال هذا النوع الأخير ما تسميه «أنا فرويد» بالتوحد بالمعتدى وفيه يسيطر الفرد على مخاوفه من الشخص أو الموضوع المعتدى بتوحده به ، وفيه «يتحول الشخص المهدد إلى شخص يهدد» .

راجع سول شدلنجر : التحليل النفسى ص ٢٣ .

Alice Balint : *Early years of life*. Basic Books, N. Y.

1954.

Anna Freud : *le Moi et les mécanismes de défense*.

١٢- ذهان Psychosismen - Psychosis

يظهر الذهان حين يغدو الواقع مؤلماً إلى حد يعجز معه الشخص عن مواجهته نفسياً على أى نحو من الانحاء أو حين تقوى الدوافع الغريزية بحيث لا يستطيع المرء السيطرة عليها فيصبح اصطدامها بالواقع أمراً محتوماً . ففي كلتا الحالتين يحدث نكوص في التنظيم الليبى من مرحلة العلاقات بالموضوعات إلى مرحلة النرجسية ويتم عن طريق هذا

النكوص إنكار الواقع إنكاراً متفاوت المدى يكون مصحوباً في الآن ذاته بإنطلاق الدوافع الغريزية بلا ضابط أو اعتبار لمقتضيات الواقع . ذلك ما يعنيه فرويد إذ يقول إن الأنا في المرض العقلي يتحالف مع الهو ضد الواقع بينما في العصاب يتحالف الأنا مع الواقع ضد الهو .

ولقد بين فرويد - لا سيما في دراسته البارانونيا - إن المرض العقلي إبان تكونه يمر بمرحلتين : مرحلة يتم فيها الكبت المميز للذهان عن طريق انكماش الليبيدو من العالم الخارجى وانقطاع روابط المريض بالغير ، تليها مرحلة «استرجاعية» يعود فيها الليبيدو إلى الموضوعات التى تخلى عنها ويرجع ما انقطع من روابطه بالغير ويكون ذلك عن طريق الإسقاط وتكوين الظواهر المرضية الملفتة كالهذيان بمختلف مضموناته والهلاوس المتنوعة . «فما يجذب انتباهنا جذباً قوياً لهو عملية الشفاء التى تقضى على الكبت وتعيد الليبيدو إلى الموضوعات التى هجرها» . وبعبارة أخرى فإن أعراض الذهان هى فى الآن نفسه محاولة تلقائية للشفاء . وينتج عن هذه الاعتبارات النظرية فى طبيعة الذهان نتيجة عملية تتعلق بإمكان علاجه عن طريق التحليل النفسى : فقد كان فرويد مقتنعاً بإمكان خضوع الذهان للتحليل النفسى لأننا إن حللنا الظواهر الإسقاطية فى الذهان قطعنا صلة المريض بالآخرين واضطررناه إلى النكوص العميق الذى لا يدع مجالاً للشفاء ، ولأن ظاهرة التحويل التى هى أساس التحليل النفسى لا تحدث فى الذهان لنكوص الليبيدو إلى المرحلة النرجسية الخالية من الموضوعات ، بيد أن فرويد عدل من تشاؤمه فى

آخريات حياته ولا سيما بصدد مشكلة إمكان التحويل في الذهان . يقول : «وكان يمكن أن تكون مشكلة الذهان بسيطة واضحة لو كان لنا قد انقطعت صلتة بالواقع تمام الانقطاع ولكن هذا لا يحدث إلا نادرا بل ويحتمل ألا يحدث أبداً» - (المجمل ص ٧٧) . ومن جهة أخرى نجد أن فرويد يقرب الذهان من الحلم من حيث إن الحلم ذهان قصير الأمد لا يلبث أن يزول وأن التغيرات العميقة التي تطرأ على الحياة النفسية في الحلم تتلاشى وتستعيد النفس حالة السواء . ومن ثمة يتساءل فرويد : «هل من الجرأة والحالة هذه أن نأمل في إمكان إخضاع أمراض النفس التلقائية المخيفة لسيطرتنا والعمل على شفائها ؟ إن تحت يدنا من المعارف ما يعدنا للقيام بهذه المهمة» - الموجز ص (٤٥) . فمجال البحث في التحليل النفسي للذهان مفتوح ينتظر رواده ومكتشفيه .

وقد تحقق للباحثين من بعد فرويد أن المرض العقلي لا يتنافى مع وجود ظواهر التحويل ، وإن كان تحويلاً مختلفاً كل الاختلاف عنه في الأعصاب ، فهو تحويل نرجسى يتميز بالشدة وعدم الثبات وتنعكس فيه الدوافع الغريزية المبكرة ذات الثنائية المفرطة . لذلك أصبح المرض العقلي - من حيث المبدأ على الأقل - قابلاً للتحليل النفسي بعد تعديله بما يتفق وطبيعة المرض . وأحب هنا أن أشير إشارة عابرة إلى موقفين منهجيين من التحليل النفسي للذهان هما موقف «فيدرن» P. Federn وموقف فريدا فروم - ريخمان Frieda Fromm-Reichmann .

ومن جهة أخرى فقد كان لتقريب فرويد الذهان من الحلم أكبر الأثر
فى ابتكار «روزن» (J. Rosen) منهجه فى علاج المرض العقلى بطريقة
التحليل المباشر "Direct Analysis" .

راجع :

P. Federn : *Ego Psychology & the Psychoses*. Basic
Books. N. Y. 1952.

Frieda Fromm - Reichmann : *Psychoanalysis &
Psychotherapy*. Bullard, Chicago 1959 .

J. Rosen : *L'analyse directe*. P.U.F., Paris 1959.

Fehlleistungen

Parapraxes ١٣ - سقطات (هفوات) :

Actes manqués

يقصد بها الأخطاء التى تصدر عن النسيان والسهو لا عن الجهل
بالموضوع ، وهى زلات القلم واللسان وأخطاء الكتابة والأفكار الخاطئة
والعارضة . وكل هذه الظواهر التى تنسب عادة إلى الصدفة و «عدم
الانتباه» هى - فى رأى التحليل النفسى - ظواهر ذات معنى يمكن تبينه
إذا ما حددنا - بإتباع قاعدة التداعى المطلق - الظروف والسوابق المسؤولة
عن إحداثها . أو كما يقول فرويد : «إذا ما فحصنا بعض نقائص الوظيفة

النفسية وبعض الأفعال الغير قصدية فى الظاهر فحسباً تحليلياً تبين لنا أنها أفعال تدفع إليها وتحددها أسباب لا يدركها الشعور» .
ولا ينطبق هذا التفسير إلا على الحالات التى تتوفر لها الشروط التالية :

- ١ - يجب أن يكون الفعل ضمن حدود الحالة السوية .
 - ٢ - يجب أن يكون الفعل اضطراباً نفسياً عارضاً .
 - ٣ - يجب أن تكون الأسباب المسئولة عن السقطة حين وقوعها مجهولة منا .
- راجع :

S. Freud : *Psychopathologie de la vie quotidienne*, ch. XII. Payet, Paris 1948.

١٤ - سيكولوجيا الشعور :
Bewusstsein - Psychologie
Psychology of Conciousness
Psychologie de la conscience

الشعور هو موضوع علم النفس قبل ظهور التحليل النفسى الذى عارض هذا التيار وأقام ما يسمى بعلم نفس الأعماق أو علم نفس اللاشعور . وفكرة اللاشعور فكرة قديمة وإن كانت تفهم على معنى

مغاير كل المغايرة لمعناها فى التحليل النفسى (حيث يدل اللاشعور على وجود عمليات نفسية لا شعورية) . فقد أدرك علماء النفس والفلاسفة أن الظواهر الشعورية تظهر وتختفى وإن ثمة فجوات بينها ، وإن الإحساس لا يصبح شعوريًا إلا إن بلغ درجة معينة من الشدة . كل هذه الاعتبارات وما ماثلها حملت المفكرين إلى تصور أن الظواهر الشعورية أصلها عضوى ، بحيث تصبح العمليات الفسيولوجية أساسًا للشعور ، ويصبح علم نفس الشعور بهذه المثابة هو علم نفس فسيولوجي فى الآن ذاته . وقد بين هوسرل . واضح الفينومينولوجية المتعاصرة ، أدل بيان كيف نشأ علم نفس الشعور نشأة تدريجية من تأويل الكوجيتو الديكارتي تأويلًا سيكولوجيًا على يد لوك والمدرسة الإنجليزية فى القرن الثامن عشر .

ولا يتخيلن امرؤ أن التحليل النفسى موضوعه دراسة اللاشعور وأن الشعور موضوع علم نفس آخر . فالواقع أن التحليل النفسى ، وإن قام على معارضة التيارات السيكولوجية السائدة فى القرن التاسع عشر إلا أنه يدخل الشعور فى دراسته بل ويدرسه فى علاقته باللاشعور . ويمكن القول عامة بأن موضوع التحليل النفسى ليس هو الشعور واللاشعور بل هو الإنسان فى شمول إنسانيته من حيث هو وحدة بيولوجية اجتماعية ذات تاريخ .

راجع :

E. Husserl : Crise des sciences européennes et la phénoménologie *Revue philosophique* 1949 .

قارن : منظمات نفسية :

Neurssse

Neurosis

Névrose

١٥ - عصاب :

اضطرابات وظيفية غير مصحوبة باختلال جوهري في إدراك الفرد للواقع ، كما هو الحال في الأمراض الذهانية . ويميز التحليل النفسى بين نوعين من الأعصبة : الأعصبة الفعلية (Actual Neuroses) مثل النيروستانيا وعصاب القلق ، والأعصبة النفسية (Psycho-neuroses) وأهمها الهستيريا والعصاب الوسواسى . وقد بين فرويد أن الأعراض المميزة للأعصبة النفسية لا تدل على مجرد احتلال وظيفى - كما هو الشأن عند جانيه مثلاً - بل إنها ذات معنى وأن من الممكن فهم الأمراض العصبية على ضوء مفهوم «الدفاع» اللاشعورى باعتبارها وسائل متميزة يستعين بها الأنا للدرء خطر نفسى معين . يقول فرويد فى أول عرض له (١٨٩٤) لفكرة «الدفاع» فى مجال الأمراض النفسية : «كان المرضى الذين حللتهم يتمتعون بصحة نفسية جيدة حتى عرضت لحياتهم النفسية حالة لا تطاق ، أى حتى واجه الأنا لديهم خبرة أو تصوراً أو عاطفة أثارت انفعالاً من العنف ما جعل الشخص يقرر نسيانه لأنه فقد الثقة فى قدرته على رفع التناقض بين التصور المؤلم والأنا لديه رفعا يتم عن طريق العمل الفكرى» . لذلك فإن الأنا يجهد فى وقاية نفسه من التصور المؤلم بأن يتعامل معه وكأنه لم يحدث ، فينشأ صراع يؤدي فى

النهاية إلى استبعاد هذا التصور من نطاق الشعور . ولما كان القضاء على التصوير قضاء تاماً أمراً محالاً ، «لأن الأثر الذكوى والانفعال المرتبط بالتصور قائمان قياماً لا مرد له» ، فإن الأنا يجهد في تحقيق هذا الهدف تحقيقاً تقريبياً يختلف باختلاف الأمراض النفسية . ففي الهستيريا مثلاً ، يجرد الأنا التصور المؤلم من الانفعال المرتبط به فيفقد التصور خطره وتتفى عنه صفة التهديد بينما تنصرف الشحنة الانفعالية في المجال الجسمي فتكون الأعراض المرضية الهستيرية الحسية منها والحركية . وأما في العصاب الوسواسي فينفصل الانفعال من الفكرة المؤلمة ثم يلتصق بفكرة أخرى تربطها بالفكرة الأولى رابطة غير مباشرة ، وإن كانت الفكرة البديلة خلواً من الطابع المؤلم الأصلي . وقد بين فرويد أن إسقاط المضمون المؤلم على العالم الخارجى هو الحيلة الدفاعية التى يلجأ إليها الأنا في البارانويا .

راجع :

S. Freud : The Defence Neuro-Psychoses. *Collected Papers I*. Hogarth Press, London. 1950.

ويجب أن نضيف إلى ما تقدم أن حيل الدفاع وسائل متنوعة لاستبعاد الخبرة المؤلمة من الشعور أى أنها أساليب لتحقيق الكبت ، وأن عملية الكبت ذاتها تتضمن مراحل ثلاثة : المرحلة الأولى وجود نقطة من التثبيت فى التطور النفسى وقف الليبيدو عندها . هذه النقطة تجذب إليها

الليبيدو إذا ما اعترض سبيل الدافع الغري في الحاضر عائق حال دون الإشباع . والمرحلة الثانية هي مرحلة الكبت بمعنى الكلمة ، وهو ينتج عن صراع الأنا ومشتقات هذه الدوافع الغريية «التي ظلت في المؤخرة» . والمرحلة الثالثة هي فشل عملية الكبت وظهور المضمونات المكبوتة في صورة أعراض يتحقق فيها نوع من التوفيق بين الدوافع المتضاربة ، فمن خلالها يتم إشباع غري جزئي بالرغم من استمرار الحيل الدفاعية .

وثمة ملاحظة أخيرة ، فإن كان فشل الكبت يفضى إلى تكوين الأعراض العصابية فإن نجاحه يؤدي إلى تكوين الخلق الفردى . ومن جهة أخرى نجد أن الدوافع التي تفصح عن نفسها في صورة الظواهر العصابية - بعد أن يعجز الكبت عن قمعها - هي ذاتها التي تظهر في الانحرافات الجنسية دون أن يقع عليها الكبت .

Oedipuskomplex

Oedipus Complex

Complexe d'oedipe

١٦ - عقدة أوديب :

Kastrationskomplex

Castration Complex

Complexe de castration

عقدة الخصاء :

إن ثمة علاقة وثيقة بين العقدتين تبرر الجمع بينهما فى تقديم واحد.

تشير عقدة أوديب إلى تعلق الطفل بالوالد من الجنس الآخر تعلقاً يتناوله الكبت بسبب الصراع الذى ينشأ من اصطدام هذا التعلق بمشاعر الحب والكره والخوف التى يشعر بها الطفل تجاه الوالد من نفس الجنس . وهو ما يسمى بعقدة أوديب الإيجابية . أما عقدة أوديب السلبية فتتكون حين يحل التعلق الشبقى محل مشاعر العدوان التى يستشعرها الطفل حيال الوالد من نفس الجنس ، ومثال ذلك ما نراه عند الصدى من سلبية لا شعورية مصدرها الجنسية المثلية وموضوعها شخص الأب .

أما عقدة الخصاء فتدل على الخوف اللاشعورى من فقدان الأعضاء التناسلية أو ما يقابلها من الأعضاء ، عقاباً على إتيان الفرد بعض الأفعال الجنسية المحرمة أو شعوره ببعض الدوافع الجنسية تجاه موضوع محرم . فالخوف من الخصاء ينشأ نتيجة لوجود الموقف الأوديبى .

يقول فرويد : « يرى التحليل النفسى فى التوحيد أو تعبير عن رابطة انفعالية لشخص بآخر . وهو يقوم بدور فى التاريخ المبكر لعقدة أوديب . فالصبي يبدى اهتماماً خاصاً بوالده ، فهو يود أن يكبر مثله وأن يصبح مثله ويحل محله فى كل مكان . ويمكننا أن نقول ببساطة إنه يتخذ من والده مثلاً أعلى . وهذا السلوك لا شأن له بموقف سلبى أو أنشوى من والده (أو من الذكور عامة) ، وإنما هو على الصدد موقف مذكر بالذات ، وهو يتفق تماماً مع عقدة أوديب ويمهد لهذا السبيل .

وفى نفس الآن الذى يحدث فيه هذا التوحد بالوالد أو بعده بقليل ،
يبدى الصبى اهتماماً حقيقياً بأمه وفقاً للنمط التواكلى . فهو يكشف إذ
ذاك عن رابطتين مستقلتين من الناحية النفسية . استثمار موضوعى جنسى
صريح تجاه أمه وتوحد أمثل بوالده . وهاتان الرابطتان تلتقيان فى النهاية
نتيجة لتقدم الحياة النفسية نحو الوحدة تقدماً لا تقهر ، وينشأ عن هذا
الالتقاء عقدة أوديب السوية . فالصبى يلحظ أن والده يقف فى طريقه إلى
أمه . وإذاً ذلك يصطبغ توحيده بوالده بصبغة عدوانية فيصبح مماثلاً للحلول
محل الأب تجاه الأم أيضاً . والواقع أن التوحد ثنائى الميول منذ البداية
فهو قد يصبح تعبيراً عن الحب بنفس السهولة التى يتحول بها إلى
الرغبة فى إقصاء الآخر» .

راجع :

S. Freud : *Group Psychology and the Analysis of the Ego*. Hogarth Press, London 1949.

Trieb

Drive, Instinct

Pulsion, Instinct

١٧ - غريزة :

الأصح ترجمة هذا المفهوم بالدافع الغرى ، لولا أن الشائع فى
الفرنسية والإنجليزية ترجمته بالغريزة . لذلك يجب التنبيه إلى أن فرويد
يستخدم مفهوم الغريزة هذا بمعنى خاص . فهو لا يدل لديه على ميل

بيولوجي مجاله الجسم ، بل على هذا الميل البيولوجي من حيث هو موضوع خبرة نفسية . فالغرائز هي «الممثل النفسى للمنبهات التى تصدر عن الكائن العضوى وتتغلغل فى النفس وهى فى الآن ذاته مقياس للمطالب التى تفرضها على الطاقة النفسية صلة النفس بالبدن» .

S. Freud : Instincts their Vicissitudes. *Collected Papers*
IV. Hogarth Press. London 1950.

ويتناول فرويد الغرائز من وجهات نظر ثلاث : فهو يفترض أن لكل غريزة مصدرًا بمدىها بالطاقة الضرورية وأن لها موضوعًا تتجه إليه لغرض الإشباع وهدفًا يحقق لها هذا الإشباع .
راجع - الإيروس ، غريزة الموت .

Fetichismus

Fetichism ١٨ - الفتشية :

Fetichisme

نوع من الانحرافات الجنسية يستبدل فيه الموضوع الجنسى السوى بموضوع آخر متعلق به وإن كان غير ملائم للإشباع الجنسى السوى .
«وعادة ما يكون بديل الموضوع الجنسى جزءًا من الجسم قليل الملاءمة للهدف الجنسى (الشعر أو الأقدام) أو موضوعًا جامدًا على صلة وثيقة

بموضوع الحب ويجنسه على وجه التفضيل (أجزاء من ملابسه أو ملابسه الداخلية) . وهذه الموضوعات البديلة يمكن مقارنتها بالفتش الذى يجسد فيه الإنسان المتوحش إلهه .

ويتجلى فى اختيار الفتش . . . الأثر الباقي لانطباع جنسى أحس به المرء - فى أغلب الحالات - إبان الطفولة . وفى حالات أخرى فإن تسلسلاً رمزياً للأفكار عادة ما يكون لا شعورياً ، يؤدي إلى إبدال الموضوع بالفتش . وليس من الممكن دائماً الاهتداء إلى السبيل الذى سلكته هذه الضروب من المستدعيات (القدم رمز جنسى غريق فى القدم ذكرته الأساطير ، وأهميته الفراء الفتشية راجعة - على الأرجح - إلى المشابهة بينه وبين شعر العانة لدى المرأة) . ولكن يبدو أن هذه الصورة من الرمزية لا تنفصل هى الأخرى عن الانطباعات الجنسية إبان الطفولة»
راجع :

S. Freud : *Trois essais* p. 45-6.

R. Abraham : Remarks on the Psychoanalysis of a case of Foot and Corset Fetichism : *Selected Papers*, Hogarth Press. London 1954.

Infantielen Amnesic

Infantile Amnesia

Amnésie infantile

١٩ - فقدان الذاكرة الطفلى :

ظاهرة دينامية اكتشفها فرويد في سياق دراسته لسنوات الطفولة الأولى . فقد لاحظ أن النسيان التام يلحق - لدى المرضى والأسوياء عامة- بذكريات وانطباعات فترة من الطفولة تمتد من ست إلى ثمان سنوات وهي فترة تكون فيها قدرة الفرد على التذكر في أوجها . وتدل المشاهدة التحليلية على أن هذه الذكريات والانطباعات تركت في النفس أعمق الأثر وأقواه وأنها وجهت نمو الفرد توجيهًا حاسمًا . «فليس الأمر إذن اختفاء حقيقى لانطباعات الطفولة وإنما هو فقدان للذاكرة أشبه بفقدان الذاكرة لدى العصبيين فقدانًا يمحو ذكرى أحداث طرأت في عهد متقدم ، ويتميز برفض تسجيل بعض الانطباعات في الشعور (الكبت) . يبقى أن نعرف ما هي القوى التي تؤدي إلى كبت الانطباعات الطفلية . إن من يجد إجابة على هذا السؤال يكون قد وجد من ثمة تفسيراً لفقدان الذاكرة الهستيرى» .

S. Freud : *Trois essais sur la théorie de la sexualité*, p. 77-8.

Grundregel

Fundamental Rule

Règle fondamentale

٢٠ - القاعدة الأساسية :

وتسمى أحيانًا بقاعدة التداعى المطلق أو الحر ، وهي عبارة عن ميثاق يتعهد فيه المريض - منذ بداية العلاج التحليلي - بالتعبير عن كل

ما يجول بخلدك دون حذف أو اختيار إراديين . فهي تعارض لإتجاه السائد نحو السكوت عن الخواطر المؤلمة وعدم التصريح بها للنفس والغير معارضة مطلقة . فالغاية من تطبيقها إذن معارضة عوامل الكبت المسئولة عن تكوين المرض النفسى . وبعبارة أدق إن أطلق المريض حوافره دون تقييد شعورى أو إرادى ، فإنه لا يلبث أن يكشف بالتدريج عن المضمونات النفسية المكبوتة فى اللاشعورية وعن الحيل النفسية اللاشعورية المسئول عن هذا الكبت . ويأخذ هذه الحيل وتلك المضمونات للتحليل المستمر يتحقق حل الصراع النفسى وما يفضى إليه من مختلف الأمراض .

ومن الناحية التاريخية ، لم يتأدى فرويد إلى فكرة التداعى المطلق وتطبيقها فى العلاج النفسى إلا بعد أن استعان أولاً بالتنويم المغناطيسى ثم بالإيحاء بوصفهما وسيلتين للنفاذ إلى بواطن اللاشعور وكشف خفاياه . وقد بنى فكرة التداعى المطلق - من الناحية النظرية - على إيمانه المطلق بالحتمية النفسية أو بالأحرى على افتراض أن الظواهر النفسية جميعاً ذات معنى . وبوضع قاعدة التداعى المطلق أصبح التحليل النفسى طريقة مستقلة عن «طريقة التنفيس» Cathartic Method التى ابتكرها بروير Breuer واستخدمها بالاشتراك مع فرويد فى دراسة الهستيريا وعلاجها فى الفترة ما بين ١٨٨٢ - ١٨٩٥ . وكانت هذه الدراسة نقطة البدء لتفكير فرويد فى معنى الأمراض النفسية وعلاجها مما أفضى به فى

النهاية إلى وضع طريقة التحليل النفسى والقيام بالاكشافات الثورية فى
مجال التحليل النفسى والعلوم الإنسانية عامة .

راجع :

E. Jones : *Sigmund Freud, Life & Work. Vol. I, The
Young Freud : The Breuer Period.*

قارن : مستدعيات :

Hemmung

Inhibition

٢١ - كف :

فى التحليل النفسى يدل الكف على «التقييد الوظيفى للآنا» ، وهو
تقييد يرجع إلى أسباب متنوعة . . ويمكن تمييز هذا الاتجاه أيسر تمييز
فى حالات الكف النوعية . فإن لحق العزف على البيان والكتابة والمشى
ضروب الكف العصابى فإن التحليل يمدنا بالسبب . فالأعضاء التى
تستخدمها هذه الوظائف قد اكتسبت معنى جنسياً مفرطاً . ونحن نعرف
عامة أن الوظيفة التى يؤديها عضو فى خدمة الآنا تقل كلما رادت شحتها
الشهوية أو معناها الجنسى . . فإن اتخذت الكتابة ، وهى تنحصر فى
إراقة سائل من القلم على صفحة بيضاء . معنى الجماع الرمزى وإن
أصبح المشى هو المقابل الرمزى لمس جسم الأرض - الأم ، توقف
هذان الفعلان ، الكتابة والمشى ، لأن القيام بهما يعنى ممارسة نشاط

جنسى محرم . والانا يتخلى عن هذين الوظيفتين اللتين تعتمدان عليه لكي لا يقوم بمحاولة كبت جديد ومن ثمة لتجنب صراع مع الهو .

وثمة ضروب أخرى من الكف تصدر بوضوح عن رغبة فى عقاب الذات وتلك هى غالباً حالة أنواع كف النشاط المهنى . فقد منع الأنا من ممارسة بعض أنواع النشاط التى تعود عليه بالفائدة والتوفيق والنجاح لأن الأنا الأعلى الصارم حرم عليه ذلك . والانا يتخلى ههنا عن هذه الأنواع من النشاط حتى لا يدخل فى صراع مع الأنا الأعلى»

راجع :

S. Freud : *Inhibitoir ; Symptôme et angoisse*, p. 4-5,
P.U.F. Paris

٢٢ - : ليبيدو Libido :

١ - المعنى الضيق لهذا المصطلح هو البحث عن الإشباع الجنسى . يقول فرويد: «لتفسير الحاجات الجنسية لدى الإنسان والحيوان نستعين فى علم الحياة بفرض وجود «غريزة جنسية»، كما نفترض غريزة التغذية لتفسير الجوع . غير أن ليس فى اللغة الدارجة، فيما يتعلق بالحاجة الجنسية، ما يقابل كلمة جوع، لذلك يستخدم العلم كلمة ليبيدو» .

S. Freud : *Trois essais*, p. 19 .

٢ - المعنى الثانى لهذا المصطلح : طاقة غريزة الحياة التى تتوزع بين الأنا (الليبيدو النرجسى) والموضوعات أو الأشخاص (الليبيدو الموضوعى) . فهو من ثمة «الطاقة» (وتعتبر مقداراً كمياً لا يمكن قياسه حالياً) الطاقة التى تدخل فى كل ما تتضمنه كلمة «حب» . وجوهر ما نعنيه بالحب يتكون من الحب الجنسى الذى يستهدف الاتصال الجنسى (وهو ما يسمى عادة بالحب ويتغنى به الشعراء) . بيد أننا لا نفصل عن هذا المعنى كل ما له أية حصة من اسم الحب - من ناحية حب الذات ومن ناحية أخرى حب الوالدين والأطفال والصدقة وحب الإنسانية على وجه العموم ، بالإضافة إلى الولاء للموضوعات العينية والأفكار المجردة» .

S. Freud : *New Introductory Lectures on Psycho-analysis*, p. 134.

ويمكن التعقيب على هذا التوسع فى مفهوم الليبيدو بالإشارة إلى اكتشاف فرويد وجود النشاط الجنسى فى صور معينة فى عهد الطفولة من ناحية وفى الانحرافات الدائمة أو العابرة من ناحية أخرى . بحيث لا يكون معنى الجنسى مطابقاً لمعنى التناسلى . وهذا التوسع له ما يقابله فى ميدان الحياة النفسية ، فالحياة النفسية كما علمنا التحليل النفسى

للأحلام والأعراض المرضية ليست الشعور ولكنها أيضا اللاشعور والقبلشعور .

٣ - يدل مفهوم الليبيدو عند يونج على الطاقة النفسية : يقول : «أطلق اسم الليبيدو على الطاقة النفسية في عمومها . وفرضي الأصل هو أن النفس ، إن صح أنها تَكُونُ لِسَبْقًا بِمُخْلَقًا نَسِيًّا ، حاصلة على جهد من الطاقة مساويًا لنفسه خلال كل مظاهر الحياة أي أنه إذا أوقفت الطاقة إحدى مظاهرها فإنها تتجلى في مظهر آخر» .

C. C. Jung : *L'homme à la découverte de son âme*, p. 184. Editions du Mont Blanc, Genève 1946.

Lust prinzip

Pleasure Principle

Principe de plaisir

Realitaet prinzip

Reality Principle

Principe de Réalité

٢٣ - مبدأ اللذة

مبدأ الواقع :

هما المبدأان المتعارضان اللذان يسيطران على العمليات النفسية في نشأتها وتطورها . يقول فرويد : «لقد عودنا أنفسنا في ميدان علم النفس

الذى أساسه التحليل النفسى أن نبدأ بالعمليات النفسية اللاشعورية التى عرفنا خصائصها من خلال التحليل . ونعتبرها أقدم العمليات الأولية وأنها بقايا مرحلة من التطور كانت فيها النوع الوحيد من العمليات النفسية . ومن السهل تبين الإتجاه الغلب المهيمن على هذه العمليات الأولية ، فهو ما يسمى بمبدأ اللذة - الألم (Lust - Un lust prinzip) أو مبدأ اللذة على وجه الإيجاز . وهذه العمليات تنزع للحصول على اللذة . والنشاط النفسى يتخلى (بالكبت) عن أى عملية تتسبب فى التنغيص (الألم) . وإن أحلامنا الليلية وميلنا الواعى إلى إقصاء انطباعاتنا المؤلمة شواهد باقية على غلبة هذا المبدأ وأدلة على قوته .

إنى إذ أفترض أن حالة الاتزان النفسى اختلت بتأثير المطالب الملحة للحاجات الداخلية ، استرجع آراء بسطتها فى موضع آخر . ففى الموقف الذى أفحصه نجد أن كل ما هو موضوع للتفكير (أو الرغبة) فإنه يتخيل فى صورة هلواسية ، كما لا يزال يحدث الآن لأفكار أحلامنا كل ليلة . وهذه المحاولة للإشباع عن طريق الهلوسة تُركت نتيجة لغياب الإشباع المترقب بسبب خبرة خيبة الأمل . فكان لابد للجهاز النفسى عوضاً عن ذلك أن يقرر تصور الأحوال الواقعية للعالم الخارجى وأن يروض نفسه على تعديلها . وعلى هذا المنوال ظهر مبدأ جديد للنشاط النفسى ، فلم يعد موضوع التصور ما هو لاذئ بل ما هو واقعى وإن كان مؤلماً . وقد تبين أن قيام مبدأ الواقع خطوة هامة

S. Freud : Formulation regarding the two Principles in mental Functioning, *Collected Papers*. IV, p. 13-14.

ويدل مبدأ اللذة على إتجاه الكائن العضوى فى الصور البدائية من سلوكه (أى فيما يسمى بالعمليات الأولية اللاشعورية) إلى الحصول على اللذة وتجنب الألم دون اعتبار لمقتضيات الواقع . أما مبدأ الواقع ، وهو ناتج عن تعديل مبدأ اللذة تعديلاً تدريجياً بتأثير الخبرات المؤلمة ، فيستهدف إشباع حاجات الكائن العضوى مع مراعاة التوافق مع الواقع .

٢٤ - **مستدعيات** : Assoziationen

Associations

فى التحليل النفسى يقصد بالمستدعيات المواد النفسية - الشعورية واللاشعورية - التى ترد إبان العلاج حين يلتزم المريض بقاعدة التداعى الحر فيعبر عن أفكاره ومشاعره كما ترد على نفسه دون حذف أو اختيار قصدين . وهذه المستدعيات قد تكون أفكاراً أو أخيلة أو ذكريات أو رلات غير مقصودة أو انفعالات أو عواطف أو أحاسيس عضوية إلخ . وهى ترتبط فيما بينها إرتباطاً ذا معنى يمكن قراءته . يقول فرويد : «القاعدة فى التحليل النفسى أن رابطة داخلية لم تكشف بعد تنم عن نفسها عن طريق التجاور - القرب الزمنى للمستدعيات تماماً كما هو الشأن فى الكتابة إذ أن تجاور (أ) و (ب) . يعنى أنه ينبغى أن تكون منهما المقطع (أ ب) .

راجع :

S. Freud : Dora Case, *Collected Papers* III p. 49.
Hogarth Press, London.

personlich Gleichung

Personal Equation

Equation personnelle

٢٥ - المعادلة الشخصية :

اصطلاح مستمد من لغة الفلكيين ، وهو يدل أصلاً على خطأ يقع فيه الفلكيون عند تحديد لحظة مرور كوكب بخط الزوال باستخدام ما يسمى بطريقة «العين والأذن» . وهو خطأ فى التقدير يختلف باختلاف الأفراد وإن كان يميل إلى أن يكون هو هو بالنسبة لنفس الفرد . وكان ماسكيلين (١٧٩٥) هو أول من اكتشفه وقام بيسيل (١٨٢٠) بدراسته فاقترح تصحيحاً للقياسات التى يقوم بها كل فرد ، اسمه المعادلة الشخصية ، الغاية منه رفع العامل الشخصى عن القياسات الموضوعية .

ويستخدم الاصطلاح فى علم النفس للدلالة عن تشويه الحكم نتيجة لتدخل العوامل الشخصية فى الفحص النفسى تدخلاً يؤدى إلى أخطاء متماثلة فى التقدير .

ولا سبيل إلى تصحيح المعادلة الشخصية فى علم النفس إلا بالتدريب المستمر من ناحية والتحليل النفسى للباحث نفسه من ناحية

أخرى بحيث لا تتدخل النزوات الشخصية في التقدير إلا في أضيق الحدود وتكون دائماً موضع ضبط شعورى .

راجع فى هذا الصدد مقالة :

S. Rosenzweig : The experimental Situation as a psychological Problem, *Psychol. Rev.* 1933. 27.

Manifest Trauminhalt

Manifest Content

Contenu manifeste

٢٦ - المضمون الظاهر للحلم :

latent Traumgedanken

latent dream - thought

Pensée latente du reve

أفكار الحلم الكامنة :

الحلم لغة مصورة أشبه بالكتابة المصرية القديمة : تلك هى مركز نظرية فرويد فى طبيعة الحلم . يقول : «هب أمامى لغزاً من الألغاز المصورة : منزل أرى على سطحه مركباً ، ثم حرفاً واحداً من الحروف الأبجدية ، ثم شخصاً يجرى منزوع الرأس إلخ . لقد انزلق إلى النقد معلناً أن هذه الصورة غير معقولة فى كلها أو فى أجزائها فما شأن المركب بسطح المنزل ؟ وكيف لرجل يجرى منزوع الرأس ؟ ثم إن

الرجل أكبر حجمًا من المنزل وإذا كان المراد بكل هذا هو أن يصور
منظرًا طبيعيًا فليس هذا محل الحرف الأبجدي ، فالطبيعة لا تعرف
الحروف الأبجدية . ولكن من الواضح أننا نوفق إلى الحكم على هذا
اللفظ حكمًا صحيحًا حين ندع جانبًا أمثال هذه الانتقادات الموجهة إلى
الصورة في مجموعها وفي أجزائها ، وحاولنا بدل ذلك أن نبذل بكل
عنصر من عناصر الرسم مقطعًا أو كلمة يمكن تمثيلها بهذا العنصر على
نحو من الانحاء . فإن فعلنا فقد لا تخرج لنا منه كلمات خالية كذلك من
المعنى بل قول من أجمل ما جاء به الشعر وأفصحه . والحلم لفظ مصور
من هذا القبيل » . تفسير الأحلام من ٢٩١-٢٩٢ .

فالحلم يتطلب نوعًا من الترجمة تظهر النص الأصلي (أفكار الحكم
الكامنة) الذي ظهر في الحلم في صورة رمزية . ولا مناص من تطبيق
قاعدة التداعى المطلق (انظر القاعدة الأساسية) لتحديد العناصر التي يرمز
إليها الحلم إيماء أو يدل عليها دلالة ملتوية أو يشير إليها إشارة محرفة
مشوهة . ومتى حصلنا على هذه العناصر التي صاغها الحلم وفقًا لقوانينه
التي هي في نفس الآن قوانين اللاشعور ، تمكنا من فهم الحلم وعرفنا
مقصده على وجه الدقة . ومن ثمة يبدو تأويل الحلم وكأنه يسير في نفس
الطريق الذي سلكه الحلم إبان تكوينه ولكنه يسير فيه في إتجاه مضاد له

انظر : فرويد : تفسير الأحلام ص ٢٩١-٢٩٢ . ترجمة مصطفى
صفوان ، المعارف : القاهرة ١٩٥٨ .

Erogene Zone

Erotogenic Zone

Zone érogène

٢٧ - منطقة شهوية :

من اكتشافات التحليل النفسى الأساسية وجود تاريخ طويل للدوافع الجنسية سابق على مرحلة النضج الجنسي الفزيولوجى فى المراهقة . وقد تأدى فرويد إن كشف الجنسية تدريجياً إبان اقتفائه - فى علاج المرضى العصبيين - أثر الصدمات النفسية المسؤولة عن ظهور مختلف الأعراض المرضية ومن خلال دراسة الانحرافات الجنسية دراسة شاملة ، ففى كلتا الجاليتين ميول جنسية لا ريب فيها وإن كانت تتميز بتمركزها فى مناطق شهوية غير المنطقة التناسلية وباختلاف موضوعاتها وأهدافها عن موضوعات الدوافع الجنسية التناسلية وأهدافها .

وهذه المناطق مصدر لإشباع غرزي مصحوب بلذة . وعند النضج الجنسي السوى تفقد أهميتها الأولى وتحتل مكانه ثانوية بالنسبة للمنطقة التناسلية التى تصبح لها السيادة . والمناطق الشهوية ثلاث : الفم والشرج والقضيب . والتطور الليبى يمر بمراحل تغلب فى كل مرحلة منها إحدى هذه المناطق وتنطبع فيها الشخصية بطابع مميز . والمراحل الليبىدية أربع على التوالى : المرحلة الفموية ثم المرحلة الشرجية ثم المرحلة القضيبية ثم المرحلة التناسلية . وانتقال الفرد من مرحلة إلى

أخرى لا يعنى اختفاء المرحلة السالفة ، فثمة تداخل محتسوم والتمييزات تقريبية . وقد رسم أبراهام صورة مفصلة لمراحل التطور الليبى وما يقابلها من مراحل العلاقات بالموضوعات ، أصبح بحث من مقارنات التحليل النفسى :

مراحل التنظيم الليبى	مراحل الحب الموضوعى
٦ - المرحلة التناسلية النهائية .	حب الموضوع (ما بعد ثنائية الميول)
٥ - المرحلة التناسلية المبكرة (القضيبية)	حب الموضوع مع استبعاد الأعضاء التناسلية
٤ - المرحلة الشرجية السادية المتأخرة	حب جزئى
٣ - المرحلة الشرجية السادية المتقدمة	حب جزئى وإدماج للموضوع
٢ - المرحلة الفمية المتأخرة (افتراس البشر)	الترجسية (إدماج شامل للموضوع)
١ - المرحلة الفمية المتقدمة (الرضاعة)	عشق الذات (بدون موضوع) سابق على ثنائية الميول

راجع :

S. Freud : *Trois essais sur la théorie de la sexualité*

K. Abraham : A short History of the Development of the Libido, viewed in the light of mental Disorders. *Selected Papers*.

Instanzen

Instances

٢٨ - المنظمات النفسية :

يفترض التحليل النفسى وجود جهاز نفسى أجزاؤه ذات وضع مكانى (فرض المحل النفسى) ونموذجه الفعل المنعكس (بطرفيه الحسى والحركى) وأول تصور لهذا الجهاز يقسمه إلى ثلاثة أقسام هى الشعور وما قبل الشعور واللاشعور .

يقول فرويد : «إن الشعور تعبير وصفى خالص يصدق على أكثر المدركات مباشرة وبقينا . ولكن التجربة تدلنا على أن عنصراً نفسياً ما ، كالتصور مثلاً ، ليس شعورياً على نحو دائم . وإن ما يميز بالآخرى العناصر النفسية ، اختفاء حالة الشعور عنها اختفاء سريعاً . فقد يكون تصور ما شعورياً فى لحظة معينة ولا يكون فى اللحظة التالية ولكنه قد يرجع إلى حالته الأولى فى ظروف معينة سهلة التحقيق . وفى الفترة المتوسطة نجهل ما يكون عليه ، وقد نقول إنه ضمنى ونعنى بذلك أنه قد يصبح شعورياً فى أية لحظة . وفى قولنا إن تصوراً ما قد ظل لاشعورياً فى الفترة المتوسطة ، نصوغ تعريفاً صحيحاً إذ أن الحالة اللاشعورية هذه تطابق حالة الكون وقابلية العودة إلى الشعور .

... بيد أننا نعرف أن ثمة صنفين من اللاشعور : الوقائع النفسية الضمنية القابلة أن تصبح شعورية والوقائع النفسية المكبوتة التى لا

تستطيع- بما هي عليه وفي حد ذاتها - أن تبلغ الشعور . . لذلك نقول إن الوقائع النفسية الضمنية أى اللاشعورية بالمعنى الوصفى لا الدينامى للكلمة ، هي وقائع قبلشعورية بينما نستبقى كلمة لاشعورية للوقائع النفسية المكبوتة أى اللاشعورية من الناحية الدينامية . فلدينا إذن ثلاثة حدود : شعورى ، قبلشعورى ولا شعورى ، ومعناها ليس وصفاً بحتاً .

S. Freud : *Essais de psychanalyse*, p. 166-7.

بيد أن فرويد لم يلبث أن عدل هذا التصور الأول للجهاز النفسى لما تحقق له ما يلى : - إن الأنا ليس مرادفاً للشعور كما يفترض هذا التصور، إذ أن ثمة جانباً لاشعورياً فى الأنا يتمثل فى مختلف ضروب المقاومة اللاشعورية ، مما يجعل من الخطأ مثلاً تصوير العصاب بأنه صراع بين الشعور واللاشعور . ومن جهة أخرى فليس اللاشعور قاصراً على العناصر المكبوتة ، بل من الممكن تصور وجود العمليات اللاشعورية فى المبدأ قبل أى تنظيم نفسى لاحق . أضف إلى هذا أن الطفل إذ يتوحد بالوالد من نفس الجنس فى المرحلة الأوديبية - وهو توحد يتم على نحو لاشعورى أيضاً - يكتسب منه نواة الضمير الأخلاقى . لكل هذه الاعتبارات عدل فرويد تقسيم الجهاز النفسى إلى شعور وقبلشعور ولاشعور فجعل منه منظمات نفسية ثلاث هي : الهو (بالألمانية Es وبالإنجليزية Id والفرنسية Ca) والأنا (بالألمانية Ich والإنجليزية Ego

والفرنسية (Moi) والانا الأعلى (بالألمانية Uber-Ich وبالإنجليزية Sup-er-Ego والفرنسية Surmoi) وتتبع نشأة كل منها ، وخص كل منظمة منها بوظائف نفسية معينة ، واضعاً بذلك أسس ما يسمى فى التحليل النفسى المعاصر باسم «سيكولوجيا الانا» Ego Psycholgy .

راجع :

S. Freud : *Essais de psychanalyse*. Payot, Paris 1948.

Ambivelenz

Ambivalence

٢٩ - ميل مزدوج =

مصطلح أتى به بلوليز (1911) Bleuler فى معرض ذكره السمات المميزة لمرض الفصام . فالمرضى بالفصام يتخذ من الموضوعات والأشخاص مواقف موجبة وسالبة فى نفس الآن . وفى المستوى الانفعالى هناك الحب والكراهية لنفس الموضوع وفى الوقت نفسه (Affective ambivalence) وفى المستوى الإرادى يعبر المريض عن الرغبة ونقيضها ، الأكل وعدم الأكل مثلاً (Ambivalence of the will) وفى المستوى العقلى يؤكد المريض فى آن واحد القضية ونقيضها . «أنا فلان ، أنا لست فلاناً» (Intellectual ambivalence) .

وقد اقتبس فرويد هذا المفهوم وأسبغ عليه معنى دينامياً جديداً فدرس على هذه الدوافع الغرورية فى نشأتها وتطورها ، مبيناً كيف تتميز الدوافع

الأولى بشدة الثنائية وكيف تبقى الدوافع المميزة لمرحلة من مراحل تطور
الليبيدو بجانب الدوافع الجديدة وكيف تتحول الدوافع إلى نقيضها :
راجع :

E. Bleuler : *Dementia Praecox or the Group of
Schizophrenias*, p. 53. Intern. University Press N. 1558 p.

قارن : المناطق الشهوية :

Verschiebung

Displacement

Déplacement

٣٠ - نقل :

عملية نفسية لاشعورية تنحصر في نقل دافع معين أو انفعال بالذات
من موضوعهما الأصلي إلى موضوع بديل : وهى الحيلة الأساسية التى
تستخدم فى أعصاب المخاوف (Phobias) للتحكم فى القلق المرضى .
مثال ذلك أن الخوف المرضى من عضه الحصان فى حالة الطفل
«هانس» ، خوف منقول من شخصية الوالد الذى يهدد الطفل بالخصاء
لرغبته فى الأم - وفقاً للموقف الأوديبى - إلى الحيوان موضوع الخوف .
راجع :

S. Freud : *Analysis of a case of Phobia in a five-year-*

old boy. *Collected Papers III*. Hogarth Press, London 1950.

٣١ - نكوص Regression :

يدل مفهوم النكوص فى التحليل النفسى على عدد من الظواهر النفسية تتميز جميعها بتقهقر النشاط النفسى الى مرحلة سابقة من مراحل تطور الليبدو . وهذا «الرجوع الى الوراء» قد ينحصر فى العودة الى موضوع الإشباع التى تتميز به مرحلة سابقة أو الرجوع الى حال مبكر من أحوال الأنا (وهو ما يحدث فى الأمراض الذهانية) . فالنكوص زمنى بهذه المثابة . وثمة نوع آخر من النكوص يسميه فرويد بالنكوص المحلى (topical) ويقصد به عودة الإثارة فى الجهاز النفسى من القبلشعور إلى اللاشعور (كما هو فى الحلم مثلاً) .

ويتضمن النكوص وجود نقط فى تطور الفرد ثبت عندها الإشباع الغرضى (نقط التشييت) يعود إليها الفرد كلما أصبح الإشباع محالاً فى المستوى الأعلى الذى بلغه . كذلك يتضمن النكوص وجود حرمان من الإشباع فى الوقت الحاضر هو المسئول عن إرتداد الليبدو إلى مرحلته السابقة التى توفر إشباعاً نكوصياً .

راجع :

S. Freud : Complément métapsychologique á la doctrine des rêves. *Métapsychologie*, Callimard, Paris 1952.

Wahn

٣٢ - هذيان :

Delusion

Délire

اعتماد مريض فى وقائع غير حقيقية أو فى تصورات خيالية لا أساس لها من الواقع . وأكثر موضوعات الاعتقاد شيوعاً هى العظمة والاضطهاد والغيرة والذنب إلخ . والمريض يعمل على تبريره ، مستعيناً فى ذلك بالتفسيرات الزائفة أو بالمدركات الحسية المتوهمة (الهلاوس) . والهذيان يشتمل على عناصر منطقية تتفاوت أهميتها من مرض إلى آخر كما يختلف مدى استخدامها فى بناء الهذيان ذاته . ففى البرانويا مثلاً يبلغ هذا البناء أوج اتساقه المنطقى وبعده عن الواقع فى آن .

وقد درس فرويد طبيعة هذه الظاهرة موضعاً مغزاهما الدينامى من حيث علاقتها بحيل دفاع الانا . فبين أن المرض العقلى - البارانويا مثلاً -- يمر بمرحلتين : مرحلة أولى - هى مرحلة المرض بالذات وتقابل الكبت فى الأمراض العصبية - تتقطع فيها الروابط الليبيدية بالعالم والأشخاص تقطعاً تدريجياً ، حتى يحيا المريض خبرة «نهاية العالم» . وتلى هذه المرحلة مرحلة أخرى أشبه ما تكون بمحاولة تلقائية للشفاء تعود فيها الروابط بالموضوعات على نحو سلبى فى هيئة أفكار الهذاء ويقوم فيها الإسقاط بدور جوهري .

راجع :

S. Freud : The Schreber case. *Collected Papers* III.

Halluzination ٣٣ - هلوس :
Hallucination

إدراك حسى بدون موضوع خارجى وهو ينتج عن تجسيم ظواهر ذاتية
تجسيماً موضوعياً يتميز بما يلى :

١ - للظاهرة صفة محسة (فالمريض يرى ويسمع ويحس كما لو كان ثمة
منه حقيقى) .

٢ - للظاهرة وجود مكانى (فالموضوع الهلوسى يسقطه المريض على
المكان الخارجى وفى إتجاه معين منه) .

٣ - الاعتقاد الخاطيء فى وجود منه حسى . فإن لم يتوفر أى من هذه
الشروط كان لنا ما يسمى بالهلوس الكاذب Pseudo-
hallucination .

وقد تتبدى الهلوس فى كل ميادين الإدراك الحسى . ومن ثمة
فهناك هلوس بصرية وسمعية وشمية وذوقية وحركية وهلوس تتعلق
بالحساسية العامة ، وأخرى جنسية وأخيراً فثمة هلوس تتصل بأكثر من
حاسة فى آن .

وإن اقتصرت الهلوس على انطباعات مبهمة غير مميزة (طنين أو
وميض إلخ) سميت بالهلوس الأولية وإن اكتسبت هيئة موضوعات
محددة (أشخاص وحيوانات وأقوال إلخ) سميت بالهلوس المركبة .

والهلاوس أصول عدة : فسيولوجية وعصبية (سطحية ومركزية) ونفسية . ولا يمكن تفسير الظاهرة فى إطار نظرية تؤكد أحد هذه الأصول دون الأخرى .

ويتناول فرويد الهلاوس من حيث إنه تعبير نكوصى عن الرغبة فى الحلم والأحوال المرضية والذهانية على وجه التخصيص . يقول : «ولكن الأحلام تختلف عن أحلام اليقظة فى خاصيتها الثانية وهى أن محتواها الفكرى يستحيل إلى صورة حسية يضيف إليها المرء تصديقه ويعتقد أنه يعيشها . . . ثم إن من الواجب ألا ننسى أن مثل هذا التحويل من الأفكار إلى الصور الحسية لا يقع فى الأحلام وحدها بل يقع أيضاً فى الهلاوس والرؤى التى تظهر ظهوراً أشبه بالمستقبل فى حالات الصحة أو من حيث هى أعراض فى حالة الأعصاب النفسية» .

راجع فرويد : تفسير الأحلام ص ٥٢٧ . ترجمة مصطفى صفوان ، المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ .

الفهرست

الصفحة	الموضوع
١٠	تنبيه
١٢	ملاحظة تمهيدية
١٣	قسم الأول : طبيعة الحياة النفسية
١٥	الفصل الأول : الجهاز النفسى
١٩	الفصل الثانى : نظرية الغرائز
٢٤	الفصل الثالث : نمو الوظيفة الجنسية
٣١	الفصل الرابع : الكيفيات النفسية
٤٢	الفصل الخامس : تعليق على تفسير الأحلام
٥٣	القسم الثانى : المهام العملية
٥٥	الفصل السادس : فن التحليل النفسى
٧١	الفصل السابع : مثال للعمل التحليلى
٨٩	القسم الثالث : المحصول النظرى
٩١	الفصل الثامن : الجهاز النفسى والعالم الخارجى
١٠٥	الفصل التاسع : العالم الداخلى

١٠٨ تثبيت المصطلحات
١٠٩	١ - انحرافات
١١٠	٢ - انفصام نفسى ، انفصام الأنا
١١٢	٣ - إحياء
١١٤	٤ - إيروس ، غريزة التدمير أو غريزة الموت
١١٥	٥ - بارانويا
١١٧	٦ - تثبيت لبدى
١١٨	٧ - تحويل
١٢٠	٨ - تخيلات
١٢١	٩ - تسامى
١٢٢	١٠ - تكثيف
١٢٣	١١ - توحد
١٢٤	١٢ - ذهان
١٢٧	١٣ - سقطات (هفوات)
١٢٨	١٤ - سيكولوجيا الشعور
١٢٩	١٥ - عصاب

الموضوع	الصفحة
١٦ - عقدة أوديب ، عقدة الخصاء	١٣٢
١٧ - غريزة	١٣٤
١٨ - الفتشية	١٣٥
١٩ - فقدان الذاكرة الطفلى	١٣٦
٢٠ - القاعدة الأساسية	١٣٧
٢١ - كف	١٣٩
٢٢ - ليدو	١٤٠
٢٣ - مبدأ اللذة ، مبدأ الواقع	١٤٢
٢٤ - مستدحيات	١٤٣
٢٥ - المعادلة الشخصية	١٤٤
٢٦ - المضمون الظاهر للحلم ، أفكار الحلم الكامنة	١٤٦
٢٧ - منطقة شهوية	١٤٧
٢٨ - المنظمات النفسية	١٤٩
٢٩ - ميل مزدوج	١٥٢
٣٠ - نقل	١٥٣
٣١ - نكوص	١٥٣
٣٢ - هذيان	١٥٤
٣٣ - هلواس	١٥٥

الموجز في التحليل النفسي

I.S.B.N ٢٠٠٠/١١٣٣٩
977-01-6847-5



هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» ..
ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى
كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى
أصبح مشروعهم الخاص، وبدأوا باستمراره طوال العام.
واستجيبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيماناً منا
بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى
إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها
الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى
الكتاب مصدراً هاماً وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات
التكنولوجية المعاصرة .. وهما نحن نحقق ببدء العام
السابع من عمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠)
عنواناً فى أكثر من ٢٠ مليون نسخة، تحتضنها الأسرة
المصرية فى عيونها وعقولها زاداً وتراثاً لا يلى من أجل
حياة أفضل لهذه الأمة .. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن
ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك

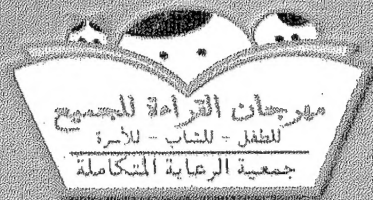
Bibliotheca Alexandrina



0397467



مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع



To: www.al-mostafa.com